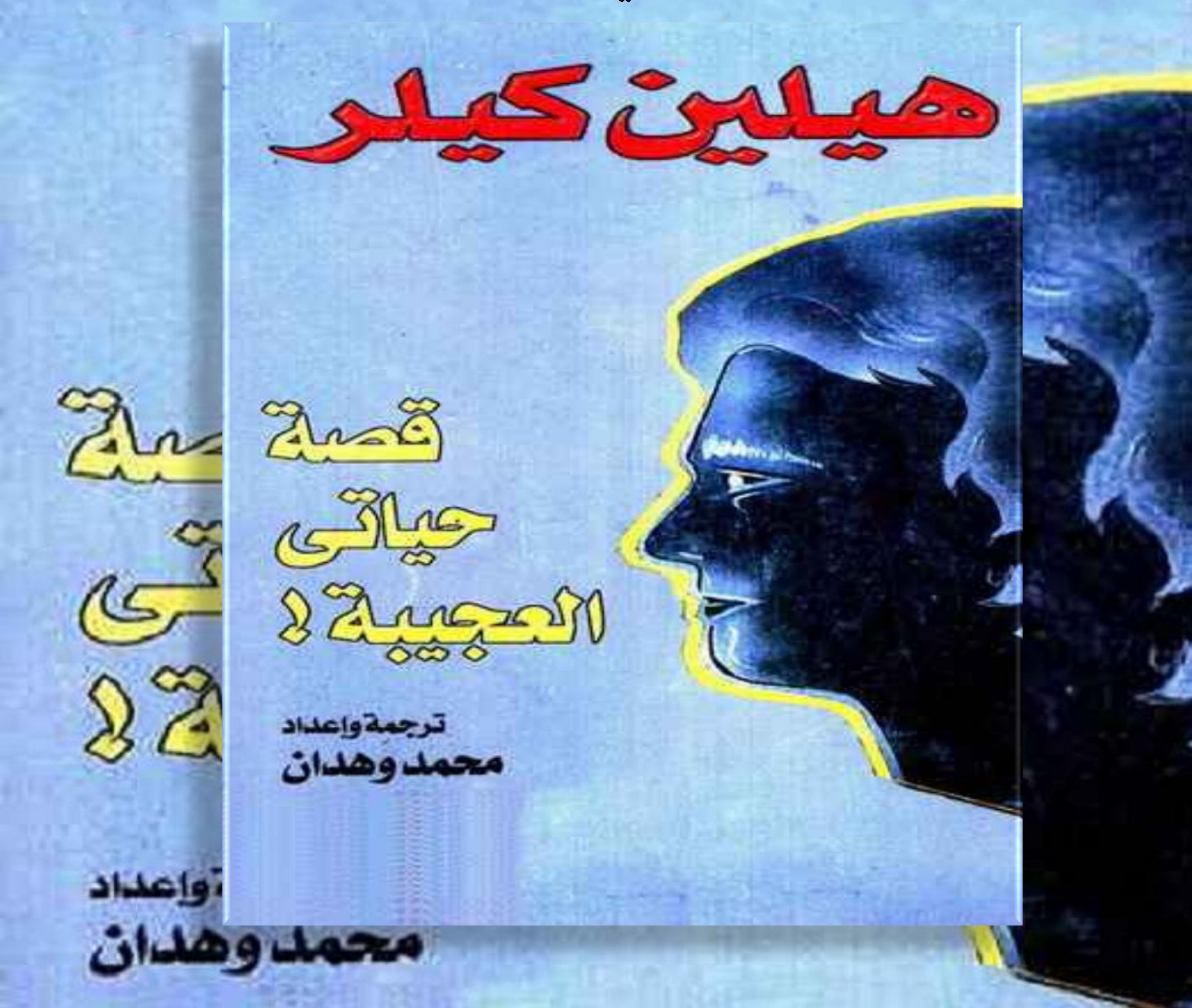

هيلين كيلر
قصة
حياتى
العجيبة !
ترجمة وإعداد
محمد وهدان



المقدمة

هيلين كيلر واحدة من أبرز الشخصيات التى ولِدت فى القرن التاسع عشر ، فالتاريخ سيظل يذكرها باعتبارها الفتاة التى تمكنت من قهر الإعاقة المزدوجة التى أصيبت بها بفقد بصرها وسمعها ، ومن المشاركة الفعالة فى الحياة العامة والأنشطة الاجتماعية .

ولدت هيلين كيلر لأسرة من الطبقة المتوسطة تقطن بلدة «توسكومبيا» بولاية «آلاباما» فى الجنوب الأمريكى ، وعاشت فى بيت تتوافر فيه وسائل الراحة ، وكان والدها يعمل محرراً صحفياً .

وأبتداء من الوقت الذى أصيبت فيه هيلين بالمرض الذى أفقدها السمع والبصر وهى فى عمر ١٩ شهراً فقط ، وإلى أن بلغت العام السابع من عمرها ، ظلت محل رعاية أسرتها المحبة لها ، والتى منحتها قدراً كبيراً من الحرية فى نطاق المنزل ، وبدون أى ضوابط .

لذا كانت هيلين تتصرف بطريقة شاذة وفى منتهى السوء كلما حاول أحد أن يحول بينها وبين أن تفعل ما ترغب فيه بالضبط أو تأخذ ما تريده بالتحديد ، كما كانت تدمر الدمى واللعب وتمزق الملابس وتخرب الكثير مما حولها كلما أصابتها أحدى نوبات الغضب متكررة الوقوع كثيراً . وعرفت هيلين حوالى خمسين إشارة استخدمتها فى التواصل المحدود مع الآخرين ، واستطاعت والدتها أن تجعلها تفهم عدداً من الأشياء ، ومع ذلك كانت صعوبة التعامل معها والسيطرة على تصرفاتها تتزايد أكثر فأكثر كلما كبرت

ولذلك كله فليس من المستغرب أن تشير هيلين إلى اليوم الذى وصلت فيه الأنسة «آن سوليڤان» لتتولى مسئولية تعليمها باعتباره «أهم يوم فى حياتها» .. فهو يوم خلاصها من السجن الرهيب !

لم تكن الآنسة «آن سوليڤان» سوى فتاة صغيرة فى الثامنة عشر من عمرها حين اضطلعت بمهمة هدم سجن هيلين وإطلاق سراحها منه ، أو بألفاظ أخرى «حين اضطلعت بمهمة تعليمها» .

والآنسة سوليڤان بدورها نشأت فى ظل ظروف صعبة ولكن من نوع أخر ، فهى لم تعرف فى طفولتها العز ووسائل الرفاهية التى نعمت بها أسرة كيلر ، بل أمضت تلك الطفولة فى منزل فقير كانت فيه تعامل معاملة قاسية وكادت تموت من سوء الحالة الصحية وفرط الإهمال ، وقد فقدت بصرها تقريبا لولا أن عينيها تحسنت بعد ذلك بالقدر الذى مكنها من القراءة . ونظراً لكون آن سوليڤان نصف عمياء فقد أرسلت وهى فى الرابعة عشر من عمرها إلى «مؤسسة بركنز للمكفوفين» فى بوسطن حيث تعلمت استخدام أبجدية الأيدى وقراءة النصوص المكتوبة بطريقة برايل .

وكانت المشكلة الأساسية الأولى أمام الآنسة سوليڤان أن تهذب سلوك هيلين وتحكم سيطرتها على تلك الطفلة صعبة المراس ، واقتضى منها هذا أن تخوض صراعاً عنيفاً مع والديها اللذين لم يكن بوسعهما تحمل خضوع طفلتهما المسكينة لقيود الانضباط السلوكى وضغوطه النفسية ، لكن الوالدين إيضاً كانا متعطشين لرؤية ابنتهما تتعلم وتكتسب قدراً من الثقافة والتحضر ، مما

جعلهما يتفهمان حقيقة استحالة أن تتمكن الآنسة سوليڤان من البدء فى تدريب هيلين قبل الهيمنة على سلوكها وتعويدها الطاعة والالتزام . ومن ثم اضطر الوالدان للإذعان ومنح المعلمةالشابة فرصة العمل دون أى تدخل منهما . وما إن تم الاتفاق على ذلك حتى شرعت آن سوليڤان فى مهمتها وبدأت تشتبك مع الطفلة الصغيرة المتوحشة فى معارك حقيقية ومشاهد دامية ، لكن قدراتها الخلاقة وجهودها الدائبة وصبرها وطول أناتها وذكاءها وحسن تصرفها أعطت جميعاً ثمارها بعد فترة غير طويلة ، وتمكنت بالفعل من السيطرة على النفس حبيسة الظلام والصمت ، وما أن أحكمت السيطرة على سلوكها وأجبرتها على احترمها وطاعتها حتى تحولت إلى سوسها بالحب واللين والرفق بدلاً من الخوف والشدة .. وهكذا تهيأت الفرصة للشروع فى تعليمها واطلاق مارد ذكائها الحبيس ! لقد حاولت آن سوليڤان ببساطة شديدة تعليم اللغة لهيلين كيلر بنفس الطريقة التى يتعلم بها كل طفل من المحيطين به ولكن عن طريق أبجدية الأيدى لكونها تفتقد المقدرة إلى السمع . وسيجد القارئ فى متن هذا الكتاب وصفاً شائقاً للكيفية التى انتبهت بها هيلين إلى «فكرة اللغة» ذاتها ، حينما تحققت بعد حيرة طويلة من العلاقة بين الأحاسيس الملسية فى يديها «الناجمة عن إستخدام أبجدية الأيدى» وبين الأشياء الحقيقية الموجودةفى العالم ، وتيقنت أن الإشارات (*) w-a-t-e-r حين يجرى هجاؤها

(*) هى بالطبع «حروف» ، لكنها أيضا «إشارات» من حيث أنها يجرى هجاؤها باللمس بالأصابع على يد الشخص الكفيف الأصم .

على أحدى يديها فهى إنما تمثل ذلك السائل البارد الذى يتدفق من الطلمبة على يدها الأخرى . ومنذ تلك اللحظة العبقرية مضت هيلين كيلر ـ وبكل شغف وشوق السجين الذى يتوق إلى الحرية ـ تسأل عن اسم كل شئ تلمسه أصابعها ، ومضى عقلها يقتنص المعلومات بسرعة كبيرة لم يكن بمقدور معلمتها أن تجاريها . ولم تحاول الآنسة سوليڤان قط فى أى وقت من الأوقات أن تتحدث إلى هيلين بطريقة مبسطة أو غير طبيعية .. بل كانت دائما تتحدث إليها بجمل كاملة وصحيحة ، وتلزم كل أعضاء الأسرة بفعل الشئ نفسه حتى برغم علمها بأن هيلين لن يكون باستطاعتها تفهم كل الكلمات التى يجرى هجاؤها على يدها . ومن الطبيعى أن هيلين ـ شأنها شأن أى طفل أخر ـ كانت تفهم فقط ما يثير إهتمامها فى التو واللحظة ، أما الباقى فكان يختزن فى مستوى اللا وعى من عقلها ليعاود الظهور فيما بعد حين يتوافر لديها الاستعداد لاستخدامه .

وبعد تسعة شهور فقط من تعلم هيلين للكلمة الأولى أصبح بمقدورها كتابة جمل كاملة فى خطاباتها والحقيقة أنه نادراً ما ظفر معلم مخلص لعمله ومنقطع إليه بمثل هذا النجاح الكبير الذى ظفرت به الأنسة آن سوليڤان فى تعليم هيلين كيلر .

وبمجرد أن وجدت هيلين كيلر أمامها نافذة مفتوحة على العالم، تخلصت تماماً من دوافع الثورة والهياج ولم تعد قط إلى نوبات غضبها الجامح وبدت فى حالتها الطبيعية ودودة محبة للآخرين ومتجاوبة معهم . ونظراً لكون هيلين أول شخص كفيف

أصم يتلقى تعليماً كاملاً (حتى المرحلة الجامعية) فقد اعتبرت أكثر من مجرد «فرد من البشر» .. إذ اعتبرت «حدثاً تعليمياً» .

وكان العالم كله فى تلك الفترة يقرأ أخبار تعليمها بكل شغف ويتابع التقارير الخاصة بذلك باهتمام شديد ، كما تلقت هيلين العون من أجل مواصلة تعليمها فى صورة هدايا من الكتب وفى صورة هبات مالية من أهل الخير فى كل أنحاء العالم . وشمل الإهتمام بتلك الفتاة الفذة ومعلمتها البارعة ليس المعلمون فقط بل الكتّاب والمثقفون وغيرهم من المهتمين بحياة العقل والروح ..

وهذا الكتاب الذى بين يديك كتبته هيلين كيلر وهى بعد طالبة فى الجامعة عام ١٩٠٢ ، لتروى لك لمحات من حياتها وقصتها مع تجربة التعليم خصوصاً فى مراحلها الأولى .وقد تخرجت هيلين فى كلية راد كليف Radcleffe College بمرتبة الشرف عام ١٩٠٤ ، واختارت منذ ذلك الوقت مسار حياة كانت قد بدأته بالفعل فى الحادية عشرة من عمرها حين قامت بتنظيم حفل شاى من أجل الخير تولت فيه جمع بعض التبرعات المالية من أجل تعليم طفلة أخرى أصغر منها ومحرومة مثلها من نعمتى السمع والبصر .

وفى عام ١٩٦٨ صعدت روح هيلين إلى بارئها ونعتها الصحف فى كل أنحاء العالم ، وكان من بينها صحيفة الأهرام القاهرية التى دأبت على نشر الكثير من أخبار هيلين عبر مراحل حياتها المختلفة .

الفصل الأول

اسمى «هيلين كيلر» ، وقد ولدت فى توسكومبيا بولاية ألاباما [1] بالولايات المتحدة الأمريكية يوم الأحد ٢٧ يونية ١٨٨٠ .. ولم تكن حياتى فى مطلعها تتسم بشئ غير عادى ، إذ كنت الطفلة الأولى لأبوىّ ، ومن ثم لقيت منهما رعاية كبيرة وحباً جارفاً ، واختارت لى أمى عقب مولدى اسم «هيلين Helen» وهو اسم جدتى (والدتها) . ، منذ شهور عمرى الأولى بدا علىّ من أمارات الذكاء ما أثار إعجاب أفراد الأسرة وأصدقائهم ، فحين كان عمرى ستة شهور استطعت أن أنطق بكلمة «مرحباً» ، وذات يوم جذبت انتباه كل من حولى عندما رحت أردد كلمة «شاى ، شاى ، شاى» بوضوح تام . وحتى بعد المرض الذى أفقدنى بصرى وسمعى ظللت أتذكر إحدى الكلمات المهمة التى تعلمتها فى الشهور الأولى من حياتى وهى كلمة «ماء» ، وقد دأبت على إطلاق صوت معين شبيه بتلك الكلمة حتى بعد أن فقدت المقدرة على النطق بأية كلمة أخرى .

وعلمت من أهلى أننى تمكنت من السير فى اليوم نفسه

(١) تقع ولاية ألاباما Alabama على خليج المكسيك ، فى جنوب الولايات المتحدة الأمريكية ، وفى القسم الشرقى منها .

الذى أتممت فيه العام الأول من عمرى ، ففى ذلك اليوم رفعتنى أمى من حوض الاستحمام واحتوتنى بين ذراعيها ، لكن حدث فى ذلك الوقت أن جذبت انتباهى ظلال أوراق الشجر المتحركة التى راحت تتمايل فى ضوء الشمس على أرضية المنزل ، فما كان منى إلاّ أن انزلقت من بين ذراعى أمى وجريت نحو هذه الظلال المتمايلة ، ثم مالبثت أن انتابنى الخوف ووقعت على الأرض ورحت أصرخ منادية أمى لكى تحملنى بين ذراعيها مرة أخرى .

وكنت حتى الوقت الذى أصابنى فيه ذلك المرض اللعين أعيش فى منزل صغير لايبعد سوى بضع خطوات عن المنزل الكبير الخاص بجدى وجدتى لأبى ، وكان منزلنا الصغير مغطى فى معظمه بالكروم [2] والنباتات المزهرة المتسلقة ونبات سلطان الجبل، كما كان أيضاً المكان المفضل للطيور الطنانة والنحل !. وكانت حديقة المنزل العتيقة الطراز بالنسبة لى بمثابة فردوسى الخاص ، وفى ذلك المنزل قضيت أياماً رائعة وسعيدة لكنها لم تدم طويلاً !. وقد مر بى ربيع قصير حافل بصداح طيور أبو الحن الخلابة والطيور المقلدة [2] ، ومر صيف ثرى بفاكهته وأزهاره ، وخريف

(٢) الكروم : أشجار العنب .

(٣) الطيور المقلدة : طيور تسمى كذلك لأن من عادتها تقليد أصوات الطيور الأخرى .

تمتزج فيه الحمرة بلون الذهب .. تتابعت تلك الفصول مجزلة عطاياها لطفلة شغوفة بالطبيعة مليئة بالسعادة والحبور ، ثم جاء شهر فبراير الحزن الكئيب ومعه المرض الذى أغلق عينى وأذنىّ دون أن يترك لى من الحواس والمقدرة على الشعور سوى ما للطفل حديث الولادة . وكان الطبيب الذى عادنى يرى أنه ليست أمامى فرصة للحياة ، لكن قدرة الله شاءت أن يبرأ جسمى من الحمى ذات صباح بصورة مفاجئة وغامضة على نفس النحو الذى كانت أصابتنى به .. وقد شملت الأسرة حينذاك نوبة فرح غامرة ، إذ لم يكن أحد يعلم - ولاحتى الطبيب - أنه لن يكون بمقدورى أن أرى أو أسمع مرة أخرى . وحين أعود بذاكرتى إلى فترة المرض تلك يختلط الأمر علىّ وتتشابك الصور فى ذاكرتى ، فأنا مازلت أذكر حنان أمى وحبها وتضحيتها براحتها من أجلى حين كانت تمرضنى فى تلك الأيام العصيبة . ومازلت أذكر سهرى بعد نوم مضطرب وتحويل عينىّ الساخنتين الجافتين نحو الحائط بعيداً عن الضوء الذى كنت قبل ذلك شديدة الولع به ، والذى صار وقتها يبدو لى أقل شدة وبريقًا عن ذى قبل يومًا بعد يوم ، وفيما عدا تلك الذكريات المحدودة بدا لى الأمر كما لو كان ضرباً من الخيال أو كأنه كابوس رهيب . وشيئاً فشيئاً اكتسبت التعود على الظلام والسكون اللذين شملانى ونسيت كلية أن الأمر كان مختلفاً تمامًا فى الماضى ، وظل الحال كذلك حتى جاءت

معلمتى التى حررت روحى وأطلقتها من سجنها ! . لكننى كنت على مدى الشهور التسعة عشر الأولى من عمرى أستمتع برؤية الحقول الخضراء الشاسعة الممتدة والسماء ذات البريق والأشجار والزهور ، تلك المشاهد التى لم يستطع الظلام الذى خيم على حياتى بعد ذلك أن يسلبنى إياها بصورة تامة .

ليس بمقدورى أن أتذكر ماذا حدث أثناء الشهور الأولى التى أعقبت مرضى ، لكن أذكر أننى كنت أمكث بين ذراعى أمى أو أتعلق بثيابها حينما كانت تؤدى أعمالها المنزلية ، وأن يدىّ كانتا تتحسسان كل شئ وتستشعران كل حركة ، وبهذه الكيفية أمكننى أن أتعلم الكثير من الأشياء .

وسرعان ماصرت أشعر بالحاجة إلى الحديث مع الآخرين ، وبَدَأَتْ بعض الإيماءات تصدر عنى ، فكانت هزة الرأس تعنى «لا» وطأطأة الرأس تعنى «نعم» ، والجذبة باليد تعنى «تعال» ، والدفعة تعنى «اذهب» . وحين كنت أريد خبزاً كانت تصدر عنى الحركات الدالة على تقطيع الخبز وتغطيته بالزبد ! . وحين كنت أرغب فى تناول «الآيس كريم» كنت أؤدى بيدى الحركة الدالة على تشغيل جهاز التجميد وأرتعش للتدليل على البرودة . وقد نجحت أمى فى جعلى أفهم قدراً كبيراً من الأمور ، وكنت دومًا أعلم حينما كانت تريدنى أن أحضر لها شيئاً ، كما كنت أسارع

بصعود السلم أو الذهاب إلى أى مكان آخر حينما كانت تظهر لى رغبتها فى ذلك .

وتمكنت بالفعل من تفهم قدر كبير مما يدور حولى من أحداث، وحين بلغ عمرى خمسة أعوام تعلمت أن أطوى الملابس المغسولة وأضعها فى أماكنها بمجرد أن يحضروها ، وكنت أميز ملابسى عن سائر الملابس ! . كما كان بوسعى أن أعلم متى تكون والدتى وعمتى فى سبيلهما إلى الخروج عن طريق تحسس ملابسهما بيدى ، وكنت أرجوهما دائماً أن يأخذانى معهما . وحين كان يأتى إلى منزلنا بعض الضيوف كانوا يرسلون فى طلبى عادة وكنت ألوح بيدى لهؤلاء الضيوف عندما يغادرون المنزل ، وأعتقد أننى كنت أفهم جيداً فى ذلك الوقت ماذا يعنى كل ذلك. وذات يوم جاء بعض الرجال الأفاضل لزيارة أهلى ، وشعرت بإغلاق الباب الأمامى والأصوات الأخرى الدالة على وصولهم [٤] فجريت أصعد السلم – قبل أن يتمكن أى شخص من إيقافى – من أجل تكوين فكرة عن ملابس الضيوف . ووقفت أمام المرآة – على النحو الذى أعرف أن الآخرين يفعلونه – ووضعت قدراً من الزيت على شعرى وغطيت وجهى بالمساحيق ثم وضعت نقاباً على رأسى بحيث غطى وجهى وانسدلت طياته

(٤) كان باستطاعة هيلين أن تشعر بحركة الهواء الناجمة عن فتح وغلق الأبواب .

على كتفى ، كما ارتديت شيئاً من ملابس أمى . وبهذه الهيئة الطريفة هبطت السلم لأعاون أسرتى فى استقبال الضيوف !

لست أعلم متى تحققت من كونى مختلفة عن الآخرين ، لكننى عرفت ذلك فعلاً قبل أن تجئ معلمتى ، فقد لاحظت أن أمى وأصدقائى لم يكونوا يستخدمون الإيماءات والإشارات التى اعتدت استخدامها حينما أريد فعل شئ معين ، بل كانوا يتحدثون بأفواههم ! . وفى بعض الأحيان كنت أقف بين شخصين يتبادلان الحديث وآخذ فى لمس شفاههم ، ولم أكن بالطبع أفهم ما يقولونه، وكان ذلك يصيبنى بالغضب ! وأحياناً كنت أحرك شفتاى وأقوم ببعض الحركات العصبية التى لامعنى لها بذراعى دون أية نتيجة . وفى بعض الحالات كان هذا الفشل يصيبنى بالغضب إلى حد أننى كنت أندفع فى الرفس والصراخ حتى تنهك قواى . وحين تزايدت رغبتى فى التعبير عن نفسى صارت هذه الانفعالات تحدث كل يوم وأحياناً عدة مرات فى اليوم الواحد!

وكان والداى حزينين وفى حيرة من أمرى ، وقد أرادا لى أن أتلقى تعليماً لكنهما لم يكونا يعرفان السبيل إلى ذلك ، فقد كنا نعيش فى موقع يبعد كثيراً عن أى مدرسة للمكفوفين أو الصم ، وبدا من غير المحتمل أن يأتى أى شخص إلى مثل هذه المدينة

الصغيرة النائية «توسكومبيا» لكى يتولى مهمة تعليم طفلة صماء عمياء مثلى .

وحين بلغ عمرى ستة أعوام سمع والدى عن طبيب فى «بلتيمور» كان بارعًا فى معالجة الكثير من الحالات التى تبدو ميئوسًا منها ، وقرر والداى ذات يوم أن يأخذانى إلى «بلتيمور» ليريا ما إذا كان من الممكن عمل شئ من أجل عينىّ . وكانت الرحلة التى مازلت أذكرها جيداً سارة للغاية ، فقد عقدت صداقات مع الكثير من الناس على متن القطار ، منهم سيدة أهدتنى علبة من الأصداف ، وقام والدى بثقب هذه الأصداف لكى أتمكن من نظمها فى خيط كالعقد ، مما أضفى علىّ السعادة والهناء لفترة طويلة ! . وكان محصل القطار (الكمسارى) شغوفاً بى أيضاً ، فكلما مر بى فى جولاته كنت أتعلق بذيل معطفه أثناء قيامه بتثقيب التذاكر بآلة التثقيب .. تلك الآلة التى سمح لى باللعب بها فكانت بمثابة لعبة لطيفة ، إذ جلست القرفصاء فى ركن المقعد ورحت أسلى نفسى لعدة ساعات بعمل ثقوب صغيرة ظريفة فى قطعة من الورق .

وصنعت لى عمتى دمية كبيرة من المناشف (الفوط) ، وكانت تلك الدمية شيئًا مثيراً للضحك يبدو كأنه لاشكل له ، إذ لم يكن لها أنف ولافم ولا أذنان ولاعينان بل ولاشئ يمكن حتى لمخيلة

الطفل أن تتصور منه وجهًا حقيقيًا . ولبعض الأسباب كان غياب العينين من وجه الدمية يزعجنى أكثر من أى شئ آخر ، وقد خطرت لى فجأة فكرة طريفة فنهضت من المقعد وبحثت تحته لأجد معطف عمتى الذى كان مثبتًا به خرزات كبيرة ، فجذبت خرزتين وأشرت إلى عمتى موضحة أننى أريدها أن تحيك الخرزتين فى وجه الدمية . فرفعت عمتى يدى إلى عينيها بطريقة استفهامية ، فأومأت لها بالإيجاب فى شغف ، فقامت بحياكة الخرزتين فى الموضع الصحيح مما ملأنى بالسعادة ! . وأثناء تلك الرحلة لم تنتابنى أية نوبة انفعال ، إذ توفر حولى الكثير من الأشياء التى تكفلت بشغل عقلى وأصابعى .

وحين بلغنا «بلتيمور» استقبلنا الطبيب بلطف ، لكنه لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا ، ومع ذلك قال لأبى : إن قدراتى تسمح لى بأن أتلقى تعليمًا ، ونصح والدى بالذهاب لمقابلة الدكتور «الكسندر جراهام بل» فى واشنطن لأن باستطاعته أن يقدم له معلومات عن المدارس والمعلمين المختصين بتعليم الأطفال الصم والمكفوفين . وقد ذهبنا إلى واشنطن على الفور عملاً بنصيحة الطبيب ، وكان والدى حزينًا لأن الطبيب فى «بلتيمور» لم يكن قادراً على معاونتى ، إلا إننى لم أعلم بذلك وكنت سعيدة وفى غاية الإثارة لكونى أتنقل من مكان لآخر .

ومع أنى كنت طفلة فقد شعرت على الفور بنفس الدفء والود الذى جعل الكثيرين من الناس يحبون الدكتور «بل» فى ذات الوقت الذى كانوا يعجبون فيه بإنجازاته الباهرة [5] . إذ أجلسنى الدكتور «بل» على ركبته حين كنت آخذة فى فحص ساعته ، وجعل الساعة تدق من أجلى .. وقد فهم هذا العالم الكبير إيماءاتى، وأدركت ذلك مما جعلنى أحبه على الفور ولم أكن بالطبع أحلم بأن تلك الزيارة ستكون الباب الذى أمر منه من الظلام إلى النور ومن الوحدة إلى الصداقة والمعرفة والحب !

نصح الدكتور «بل» والدى بالكتابة إلى مؤسسة «بِرْكِنْز» فى «بوسطن»– وهى مدرسة للمكفوفين تم فيها منذ سنوات تعليم فتاة عمياء وصماء – ليسأل ما إذا كان هناك معلم يمكنه أن يبدأ فى تعليمى . وقد فعل والدى ذلك على الفور ، وتلقى بعد عدة أسابيع رسالة رقيقة تحمل خبراً ساراً مفاده أنهم وجدوا معلمة .. كان ذلك فى صيف عام ١٨٨٦ ، لكن المعلمة – واسمها الآنسة «آن سوليفان» – لم تصل إلاّ فى شهر مارس التالى .

(٥) **الدكتور ألكسندر جراهام بل Dr. Alexander Graham Bell عالم اسكتلندى الأصل ومخترع كبير انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٧٣ حيث شغل منصب أستاذ فيزياء الصوت بجامعة بوسطن . وأسفرت بحوثه فى مجال نقل الأصوات لمسافات بعيدة عن اختراع جهاز الهاتف (التليفون) عام ١٨٧٦ ، وكانت له أيضاً بحوث مهمة فى تسجيل الصوت وفى العديد من مجالات الفيزياء الأخرى .**

الفصل الثانى

هل حدث يوماً ياعزيزى القارئ أن كنت فى أعماق البحر وسط ضباب كثيف وبدا لك أن ظلامًا أبيض يحاصرك ، وراحت السفينة الكبيرة التى تحملك تتحسس طريقها بحذر وفى قلق نحو الشاطئ ؟ . لقد كنت قبل أن يبدأ تعليمى تائهة مثل تلك السفينة ، فيما عدا أننى لم أكن أعلم أين يقع الشاطئ !

كان أهم يوم فى حياتى على ما أذكر هو ذلك اليوم الذى جاءت إلى فيه معلمتى الآنسة «آن مانسفيلد سوليفان » . وإننى ليملأنى العجب حين أفكر فى الفوارق بين هذين الشطرين من حياتى اللذين تم وصلهما فى ذلك اليوم ٣مارس سنة ١٨٨٧ قبل ثلاثة شهور فقط من بلوغى السابعة من عمرى .

فبعد ظهيرة ذلك اليوم المثير خمنت من إيماءات والدتى ومن إكثار الناس من التردد على منزلنا أن شيئًا غير عادى يوشك أن يحدث ، مما جعلنى أذهب إلى باب المنزل وأنتظر فى أعلى السلم . وكانت شمس ما بعد الظهيرة تتخلل أغصان وأوراق نبات سلطان الجبل الذى كان يغطى سقيفة الباب ، وكان بوسعى أن أستشعر دفئها بوجهى ، وكانت أصابعى تلمس الأوراق والأزهار المألوفة

التى هى رموز وشارات الربيع . لقد ظللت قبل ذلك أشعر بالغضب والمرارة لعدة أسابيع ، لكننى فى ذاك الوقت كنت متعبة وميالة للسكينة والهدوء .. ودون أن أعلم بما يخبئه لى المستقبل !

وفى إحدى اللحظات شعرت بشخص قادم فى اتجاهى ، واعتقدت أنه أمى فمددت يدى ، فأخذها ذلك الشخص القادم وأمسك بى واحتوانى بين ذراعيه كأنما ليعرفنى بنفسه وليبادرنى بصداقته ويظهر لى وده !

فى ذلك الصباح الذى أعقب وصول معلمتى قادتنى تلك المعلمة إلى غرفتها وأعطتنى دمية ، وبعد أن لعبت بها لبعض الوقت ، قامت الآنسة «سوليڤان» فى هدوء وأناة بتهجى كلمة «دمية» على يدى بطريقة أبجدية الأصابع ، وقد أثارنى هذا اللعب بالأصابع ، وحاولت أن أفعل نفس مافعلته معلمتى .. وحين نجحت آخر الأمر فى تهجى الحروف بالطريقة الصحيحة شعرت أنى فخورة للغاية بنفسى ، وجريت نحو أمى ورفعت يدى وأديت عليها الحركات المعبرة عن كلمة «دمية» .

ولم أكن فى ذلك الوقت أعلم أننى أتهجى كلمة أو أن هناك شيئاً اسمه «كلمات» ، كنت فقط وببساطة شديدة أقلد مافعله شخص آخر ! . وفى الأيام التالية تعلمت أن أتهجى عدداً كبيراً من الكلمات دون أن أفهمها ، فقد تعلمت مثلاً كلمة «دبوس» ،

«قبعة» ، «كوب» ، وبعض الأفعال مثل «يجلس» ، «يقف» ، «يمشى» . لكن معلمتى ظلت تبذل محاولاتها معى لأسابيع عديدة قبل أن أفهم أن لكل شئ اسما !

وفى أحد الأيام وبينما كنت ألعب بدميتى الجديدة أعطتنى الآنسة سوليڤان دميتى القديمة أيضاً ، وبعدها تهجت على أصابعى كلمة «د. م. ى. هـ.» ، وحاولت أن تجعلنى أفهم أن كلمة دمية تنطبق على كلتا الدميتين .

وفى وقت مبكر من ذلك اليوم دار بيننا نزاع على الكلمتين «ك. و. ب.» ، «م. ا. ء» ، إذ لم أستطع أن أفهم أنهما مختلفتين [١] ! . ومن حين لآخر أثناء ذلك النهار كانت معلمتى تعود إلى مشكلة الكلمتين كوب ، ماء . كانت صبورة للغاية ، أما أنا فلم أكن كذلك ، فقد أصابنى الغضب لأننى لم أستطع أن أفهم ، فأمسكت بدميتى الجديدة وألقيت بها على الأرض فتهشمت . وبعد أن اجتزت نوبة الغضب لم أشعر بأى أسف ، لأننى فى ذلك العالم المظلم الذى كنت ما أزال أعيش فيه حينذاك لم يكن هناك مكان فى حياتى لشعور عميق بالحب تجاه أى شئ . وأحضرت معلمتى قبعتى وعلمت من ذلك أننا فى سبيلنا للخروج إلى أشعة الشمس الدافئة ، وقد جعلتنى هذه

(١) نظراً للارتباط بين الكلمتين فالماء موجود دائماً فى الكوب .

الفكرة – إذا كان لى أن أسمى ذلك الشعور الذى لم يكن بوسعى التعبير عنه بالكلمات «فكرة» – فى غاية السعادة !

ورحنا نسير فى الطريق إلى البئر ، وكان أحد الأشخاص يسحب الماء بالطلمبة ، وقامت معلمتى بوضع يدى فى الماء المتدفق .. وبينما كان تيار الماء البارد يتساقط على يدى ، راحت المعلمة تتهجى على اليد الأخرى ببطء أولاً ثم بسرعة كلمة «ماء» . وقد وقفت ساعتها هادئة وكل انتباهى موجه نحو حركة أصابعها ، وفجأة بدا لى أنى تذكرت شيئاً كنت قد نسيته .. وشعرت بصوت مرتعش ، وتكشف لى بطريقة ما أحد أسرار اللغة إذ علمت حينئذ أن «م. ا. ء.» تعنى ذلك الشئ البارد الرائع الذى كان يتدفق على يدى .. لقد أيقظت تلك الكلمة الحية روحى وأطلقتها من سجنها [٢] !

غادرت البئر وأنا أتحرق شوقاً للتعلم ، فقد عرفت أن لكل شئ اسماً ، وأنه مع كل اسم تبرز فكرة جديدة . وبدا لى ونحن فى طريقنا إلى المنزل أن كل شئ ألمسه ملئ بالحياة ، ذلك لأنى رأيت كل شئ من خلال الفهم الجديد المختلف الذى دخل

(٢) فى تلك اللحظة العبقرية أدركت هيلين كيلر معنى الماء بكيانه المستقل حين يتساقط من الطلمبة ولا يحتويه الكوب ، وتذكرت لفظ «ماء» الذى تعلمته فى صغرها ، فأدركت فجأة أن الأشياء يمكن التعبير عنها بأسماء ينطق بها الصوت البشرى .. وكانت تلك البداية الحقيقية لرحلتها العظيمة مع التعلم .

حياتى فجأة . وحين دخلت المنزل تذكرت الدمية التى كسرتها فتحسست طريقى إلى القطع المتناثرة وحاولت أن ألصقها ببعضها مرة أخرى .. واغرورقت عيناى بالدموع لأننى أدركت سوء ما فعلت ، وشعرت لأول مرة فى حياتى بالأسى والندم . وقد تعلمت فى ذلك اليوم ، عدداً هائلاً من الكلمات الجديدة ، ولست أذكرها جميعها لكننى أتذكر من بينها الكلمات التالية : «أم ، أب، أخت ، معلم » . وكان من الصعب فى ذلك اليوم أن يعثر أحد على طفل آخر أكثر منى سعادة حين رقدت فى سريرى فى تلك الليلة ورحت أفكر فى ألوان السرور التى جلبها إلىَّ ذلك اليوم .. وإذا بى ولأول مرة فى حياتى أتطلع فى شوق إلى طلوع اليوم التالى !

مازلت أذكر الكثير من الأحداث التى وقعت فى صيف عام ١٨٨٧ فى أعقاب الاستيقاظ المفاجئ لروحى فى ذلك اليوم الذى حدثتكم عنه ، إذ تعلمت اسم كل شئ كان بوسعى أن ألمسه بيدى ، وكنت كلما تداولت بيدى المزيد من الأشياء وعرفت أسماءها واستخداماتها شعرت بأننى أكثر قرباً عن ذى قبل من بقية العالم !

وحين جاء الربيع أخذتنى الآنسة سوليفان من يدى فى جولة عبر الحقول، حيث كان الرجال يمهدون الأرض للزراعة على

ضفاف نهر «تينيسى» ، وهناك وأنا جالسة على العشب تلقيت أول دروسى حول أساليب الطبيعة ، إذ مضت الآنسة سوليڤان تشرح لى كيف تجعل الشمس والمطر النباتات تنمو ، وكيف تبنى الطيور أعشاشها ، وكيف يجد السنجاب والظبى والأسد وكل مخلوق آخر غذاءه ومأواه . وكنت كلما ازددت معرفة بالأشياء واتسعت دائرة معلوماتى ، شعرت بأننى أكثر سروراً واعتزازاً بالعالم المحيط بى . فقبل أن أتعلم كيف أجرى العمليات الحسابية أو أصف هيئة الأرض وخصائصها الجغرافية ، علمتنى الآنسة سوليڤان أن أجد الجمال فى شذى الغابات العطر ، وفى أوراق العشب الرفيعة الندية ، وفى حنايا يد أختى الوليدة . لقد جعلت الآنسة سوليڤان الطبيعة جزءاً لايتجزأ من أفكارى المبكرة ، وجعلتنى أشعر بأننى قريبة من الأشياء المفعمة بالحياة المحيطة بى !

وفى تلك الفترة تقريباً مرت بى محنة علمتنى أن الطبيعة ليست على حالها دائماً .. ففى أحد الأيام وبينما أنا ومعلمتى عائدتان من جولة طويلة ، وكان الصباح فى ذلك اليوم رائعاً لكنه مال إلى ارتفاع درجة الحرارة فى وقت عودتنا مما جعلنا نتوقف مرتين أو ثلاثا لنستريح فى ظل إحدى الأشجار ، وكانت وقفتنا الأخيرة تحت شجرة فاكهة قريبة للغاية من منزلنا . كان الظل الوارف لطيفاً ، وكانت الشجرة سهلة التسلق حتى أننى تمكنت بمعونة معلمتى من الصعود والجلوس بين فروعها . وراقنا ذلك المكان

اللطيف كثيراً لدرجة أن الآنسة سوليڤان اقترحت أن نتناول غداءنا تحت الشجرة ، ووعدتها أن أبقى هادئة حتى تذهب إلى المنزل لإحضار الطعام .

وذهبت الآنسة سوليڤان إلى المنزل بالفعل ، وكان كل شئ هادئاً مطمئناً لبعض الوقت .. لكن الشجرة أصابها تغير لم يكن فى الحسبان ، إذ اختفى فجأة كل ضوء الشمس من الجو ، وأدركت أن السماء اسودت لأن كل الحرارة التى كانت بالنسبة لى دليلاً مؤكداً على وجود الضوء اختفت من حولى . وشممت رائحة غريبة تفوح من الأرض ، وعرفتها .. إنها الرائحة التى تفوح دائماً قبل العواصف الرعدية ، وشعرت بخوف شديد وبأننى وحيدة تماماً ومقطوعة عن الأصدقاء وعن الأرض الثابتة ، وبأن المجهول يحيط بى من كل جانب . ومع ذلك بقيت أنتظر فى هدوء وإن كنت فى غاية الفزع ، وتمنيت أن تعود معلمتى بسرعة ، وتمنيت أيضاً بل وقبل أى شئ آخر أن أهبط من على تلك الشجرة وأتخلص من أسرها !

ورانت لحظة صمت مخيف ، ثم بدأت كل أوراق الشجرة تتحرك وأخذت الشجرة فى مجموعها ترتجف ، وهبت فجأة ريح قوية كان من الممكن أن تلقى بى من على الشجرة لو لم أتشبث بالفرع بكل ما أوتيت من قوة . وصارت الشجرة تتماوج بعنف

وسط الرياح العاصفة ، وتقصفت الأغصان الصغيرة وراحت تتساقط حولى كالمطر ، وتملكتنى رغبة فى القفز على الأرض لكن الخوف جعلنى أمكث حيث أنا فى موقعى فوق الشجرة . واستمرت الأغصان تتحرك حولى ورحت من حين لآخر أشعر بهزة اصطدام كما لو أن شيئاً ثقيلاً قد سقط على الشجرة ، وكانت الصدمات تنتقل إلى الفرع الذى كنت أجلس عليه . وفى الوقت الذى بدأت أفكر فيه فى أن الشجرة سوف تسقط وأننى سأسقط معها ، إذا بيد معلمتى تمتد فجأة لتمسك بى وتساعدنى على الهبوط ، فأمسكت بها وأنا سعيدة للغاية لشعورى مرة أخرى بالأرض المستقرة تحت أقدامى . لقد تعلمت درساً جديداً .. فالطبيعة ليست دائماً باسمة وهادئة.. **بل هى متقلبة وشرسة أحياناً!**

وبعد هذه المحنة امتنعت لفترة طويلة عن محاولة تسلق أية شجرة أخرى ، إذ كان مجرد التفكير فى ذلك يملأنى رعبًا .. لكن شجرة سنط رائعة ومزهرة تمكنت ذات يوم من جعلى أقهر مخاوفى ، ففى صباح يوم من أيام الربيع الجميلة كنت أجلس بمفردى فى الحديقة أقرأ [٣] ، عندما شممت رائحة عطرة حلوة العبير ، فنهضت ومددت يدىّ ، وبدا كأن روح الربيع ذاتها تملأ جوانحى ، ورحت أسائل نفسى ماهى تلك الرائحة ؟ .. وفى

(٣) كانت هيلين فى ذلك الوقت قد تعلمت القراءة بطريقة «برايل» .

الدقيقة التالية تعرفت على رائحة أزهار السنط ، فتلمست طريقى إلى نهاية الحديقة إدراكاً منى بأن شجرة السنط توجد بالقرب من السياج حيث ينعطف الطريق . نعم ، كانت هناك ويالها من شجرة رائعة الجمال وهى ترفل فى أشعة الشمس ، وكانت أغصانها مثقلة بالأزهار حتى تكاد تلمس الأعشاب الطويلة . وقد اجتزت طريقى خلال الأزهار إلى الجذع الضخم ووقفت إلى جانبه محاولة أن أقرر ماذا أفعل .. ثم إذا بى أضع قدمى فى الفرجة الواسعة بين الفرعين الكبيرين وأجذب نفسى لأعلى نحو الشجرة وكان من الصعب علىّ أن أتعلق بها لأن الفرعين كانا ضخمين وكان القلْف [٤] خشناً يؤذى يداى ، لكننى شعرت أنى أفعل شيئًا مثيراً وغير معتاد، لذا واصلت التسلق لأعلى ولأعلى حتى بلغت مقعداً صغيراً كان شخص ما قد أعده فى الماضى البعيد ثم نما ليصبح جزءاً من الشجرة نفسها.. وقد جلست هناك لفترة طويلة وأنا أشعر كأنى أجلس فوق سحابة . وبعد ذلك صرت أقضى ساعات طويلة بهيجة على شجرتى تلك وأنا مستغرقة فى التفكير وفى الأحلام الوردية !

****

(٤) القلْف : الغلاف الخارجى البنى اللون المحيط بجذع الشجرة .

الفصل الثالث

صار مفتاح اللغة في يدى ، وكنت متشوقة إلى تعلم طريقة استخدامه .. ومن المعروف أن الأطفال القادرين على السمع يتعلمون اللغة دون أدنى جهد ، فهم يسمعون الآخرين يتحدثون ويستمتعون بمحاولة إصدار الأصوات نفسها، أما الطفل الأصم فينبغي له أن يتعلم اللغة بطريقة بطيئة وبأسلوب غالبا ما يكون مرهقًا ومؤلمًا . لكن برغم هذا البطء والإرهاق والإيلام ، فإن نتائج عملية التعلم عادة مدهشة .. فنحن نتقدم بالتدريج من مجرد معرفة أسماء الأشياء إلى فهم الأفكار العميقة التى يشتمل عليها بيت من شعر شكسبير ، وهذا فى الواقع تقدم كبير للغاية !

فى أول الأمر عندما كانت معلمتى تعرفنى بشئ جديد كنت ألقى عليها عدداً قليلاً للغاية من الأسئلة ، فأفكارى حينئذ لم تكن واضحة ، ولم أكن أعرف الكثير من الكلمات وأساليب التعبير ، لكننى عندما اتسعت معرفتى بالأشياء وتعلمت المزيد والمزيد من الكلمات صار باستطاعتى أن ألقى بعدد أكبر من الأسئلة ، وصرت أعود مرات ومرات إلى الموضوع نفسه فى شغف تام إلى المزيد من المعلومات .. وفى بعض الأحيان كانت معرفة

كلمة جديدة تجعلنى أتذكر تجربة أو خبرة معينة مرت بى فى الماضى .

وعلى سبيل المثال فإننى أتذكر ذلك الصباح الذى سألت فيه لأول مرة عن معنى كلمة «حبّ» ، وكان ذلك قبل أن أتعلم الكثير من الكلمات . ودعونى أحكى لكم هذه الواقعة : فقد وجدت بعض أزهار الربيع المبكرة الظهور فى الحديقة فأحضرتها إلى معلمتى ، فحاولت بدورها أن تقبلنى كنوع من التعبير عن الامتنان ، لكنى فى ذلك الوقت لم أكن أرغب فى أن يقبلنى أحد فيما عدا أمى . فأحاطتنى الآنسة سوليفان بذراعيها برقة ولطف وتهجت على أصابعى الكلمات التالية «أحبك يا هيلين» ، فسألتها «ما هو الحب ؟» . فجذبتنى لتقربنى إليها أكثر وقالت «إنه هنا» وأشارت إلى قلبى ، فحيرتنى كلماتها الغامضة كثيراً لأننى فى ذلك الوقت لم أكن أعرف أى شئ مالم يكن باستطاعتى أن ألمسه ! .

ورحت أتشمم الأزهار فى يدها وأسألها تارة بالكلمات وتارة بالإيماءات سؤالاً معناه : «هل الحب هو الرائحة الجميلة للأزهار؟» .

فقالت معلمتى «كلا» .

ففكرت ثانية ، وكانت الشمس تسطع علينا فى ذلك الوقت ،

فأشرت فى الاتجاه الذى يجئ منه الدفء وسألتها ثانية «هل هذا هو الحب ؟» .

بدا لى وقتها أنه من غير الممكن أن يكون هناك شئ أكثر جمالاً من الشمس التى تشع الدفء فتجعل كل شئ ينمو ويزدهر، لكن الآنسة سوليفان هزت يدها إشارة إلى النفى ، مما جعلنى أصاب بحيرة كبيرة وأشعر بالإحباط ! . وذهبت فى تفكيرى إلى أنه أمر غريب للغاية ألا تستطيع معلمتى أن توضح لى ماهو الحب ! .

وبعد ذلك بيوم أو أكثر كنت أنظم (ألضم) مجموعة من الخرزات المختلفة الأحجام فى خيط ، وقد اتبعت فى ذلك طريقة معينة هى أن أنظم خرزتين كبيرتين ، ثم ثلاث صغيرات ، ثم اثنتين كبيرتين ، فثلاث صغيرات.. وهكذا . وقد وقعت أثناء ذلك فى الكثير من الأخطاء ، فأخذت الآنسة «سوليفان» تشير إلى أخطائى مرة بعد مرة فى صبر وأناة ولطف ، فمضيت بعناية واهتمام أكبر أبذل محاولات أخرى لأتمكن من نظم الخرزات بالطريقة الصحيحة ، وقد شجعتنى الآنسة سوليفان بأن لمست جبهتى وتهجت على أصابعى فعل الأمر «فكرى» !

وفى ومضة مفاجئة عرفت أن الكلمة هى اسم لما يدور فى رأسى ، وكانت تلك المرة الأولى التى أتفهم فيها بوعى تام اسم

شئ معنوى لم يكن باستطاعتى أن ألمسه بيدى !

ومكثت هادئة لفترة طويلة لم أكن خلالها أفكر فى الخرزات التى فى يدى ، بل كنت أحاول أن أجد معنى كلمة «حب» ، لأننى عرفت ساعتها ذلك النوع من الكلمات الذى تنتمى إليه . وكانت الشمس مختفية وراء السحب طوال ذلك اليوم ، وكانت هناك رخات قصيرة من المطر ، لكن الشمس سطعت فجأة بكل الروعة التى تعرفها بها ولايتنا «ألاباما» الواقعة فى الجنوب الأمريكى .

ومرة أخرى عدت لأسأل معلمتى «أليس هذا هو الحب ؟» .

فأجابتنى «الحب شئ مثل السحب التى كانت فى السماء قبل أن تسطع الشمس» . ثم راحت تشرح لى قائلة «إنك يا هيلين لاتستطيعين أن تلمسى السحب ، وأنت تدركين ذلك ، لكنك تشعرين بالمطر وتعرفين كم تكون الأزهار والأرض العطشى سعيدة حين يصل إليها ماؤه بعد يوم حار . وأنت لايمكنك كذلك أن تلمسى الحب ، لكنك تعرفين المشاعر الحلوة التى يبثها فى كل شئ ، فبدون المشاعر الطيبة لن تكونى سعيدة أو تكون لك رغبة فى اللعب» !

صار عقلى مليئاً بالحقيقة الجميلة ، وشعرت بالأواصر غير المرئية التى تربط بين روحى وأرواح الآخرين . وقد كانت الآنسة

سوليفان – منذ أن بدأت فى تعليمى – تتحدث إلى كما لو كانت تتحدث إلى طفل قادر على أن يسمع ، مع فارق واحد هو أنها كانت تتهجى كلماتها على أصابع يدى بدلاً من أن تتحدث بها . وعندما كنت لا أعرف الكلمات والتعبيرات اللازمة للإجابة عن سؤالها كانت توفرها لى ، بل وكانت أحياناً تقترح علىَّ ما أقوله حين كانت مقدرتى على التعبير تخذلنى !

استمر الأمر على هذا المتوال على مدى عدة سنوات ، لأن الطفل الأصم لايمكنه أن يتعلم فى شهر واحد – أو حتى فى عامين أو ثلاثة – كل الكلمات والتعبيرات المستخدمة فى الحياة اليومية العادية . أما الطفل الصغير القادر على السمع فهو يتعلمها من سماعها مراراً وتكراراً ثم ممارسة نطقها بنفسه ، فالحوار الذى يستمع إليه فى منزله ينشط عقله ويجعله يعمل ، ويوحى إليه بموضوعات الحديث ، ويدفعه إلى الرغبة فى التعبير عن أفكاره الخاصة . وهذا التبادل الطبيعى للأفكار لاوجود له فى حالة الطفل الأصم!. وكانت معلمتى مدركة لهذه الحقيقة ، وقد عزمت على أن تملأ هذه الفجوة ، وكانت تفعل هذا بأن تكرر لى بقدر استطاعتها ما كانت تسمعه بالضبط ، وبأن توضح لى كيف يمكننى المشاركة فى الحديث . ومع ذلك انقضى زمن طويل قبل أن تصبح لدىَّ الرغبة فى الشروع فى الحديث ، وانقضى زمن

أطول قبل أن يكون باستطاعتى أن أفكر فى الشئ المناسب وأن أقوله فى الوقت المناسب ! .

فالصُم يجدون من الصعب عليهم للغاية أن يتعلموا فن الحديث ، وتتزايد هذه الصعوبة إلى حد كبير فى حالة الأشخاص الذين يجمعون بين الصمم وكف البصر ، فهم لايستطيعون سماع نغمة الصوت التى يستخدمها المتحدث الآخر أو ملاحظة ملامح وجهه ، كما أنهم لايستطيعون بدون معاونة الآخرين أن يغيروا من درجات أصواتهم ارتفاعاً وانخفاضاً بالكيفية التى تجعل لكلامهم معنى مفهوماً لدى الآخرين ! .

وكانت الخطوة المهمة التالية فى عملية تعليمى أن أتعلم القراءة ، ولما كان بوسعى أن أتهجى بعض الكلمات ، فقد أعطتنى معلمتى قطعًا من الورق السميك مدوناً عليها كلمات بحروف بارزة ، وتعلمت لفورى أن كل كلمة مطبوعة تقوم مقام شئ أو فعل أوصفة . وكان لدى إطار يمكننى أن أرتب فيه الكلمات وأكون منها بعض الجمل القليلة ، لكننى حتى قبل ذلك كنت أصنع جملاً بسيطة تدور عن الأشياء الموجودة فى الغرفة ، فمثلاً وجدت قطع الورق الممثلة للكلمات «دمية» ، «على» ، «السرير» ، ووضعت دميتى على السرير ثم رتبت الجملة على النحو التالى : الدمية على السرير .

وقد أخبرتنى الآنسة سوليفان أننى قمت ذات يوم بتثبيت كلمة «بنت» على فستانى بدبوس ثم وقفت داخل دولاب الملابس ، ووضعت معى فى الدولاب الكلمات التالية : «فى دولاب الملابس» وعلى ذلك يكون المعنى إجمالاً : «فى دولاب الملابس بنت» .

وقد أحببت اللعب بهذا الأسلوب ، وأحياناً كنت أنا ومعلمتى نلعب هكذا لعدة ساعات متوالية ، حتى غطينا كل شئ فى الغرفة بقطع الورق المرتبة فى صورة جمل .

وكانت قطع الورق المطبوعة مرحلة أولى على طريق الكتاب المطبوع ، وقد حصلت على كتاب «القراءة الأولية» ورحت أبحث عن الكلمات التى أعرفها ، وكنت فى غاية السعادة كلما وجدت كلمة مألوفة ، وكان الأمر أشبه بلعبة «الاستغماية» . تلك هى الطريقة التى بدأت بها فى تعلم القراءة ، وسوف أشير فيما بعد إلى الوقت الذى بدأت فيه أقرأ القصص الكاملة .

ظللت لفترة طويلة للغاية لا أتلقى دروسًا منتظمة ، فحتى فى الوقت الذى كنت مستغرقة فيه فى الدراسة بجد كانت معلمتى الآنسة سوليفان تحرص على أن يبدو الأمر أشبه باللعب منه بالدراسة ، وكانت تستعين دائماً بقصة أو قصيدة جميلة لتربطها بكل ما كانت تعلمنى ، وكانت كلما أثار اهتمامى أو سرنى شئ

تركز عليه فى حوارها معى إلى حد بدت معه هى أيضاً كما لو كانت طفلة صغيرة . وليس باستطاعتى فى واقع الأمر أن أفسر سر ذلك التعاطف الخاص الذى كانت الآنسة سوليفان تبديه نحو رغباتى والأمور التى تسرنى ، وربما كان ذلك راجعاً إلى درايتها المسبقة بأحوال المكفوفين وإلى مقدرتها المدهشة على وصف الأشياء . وكانت وهى تلقى علىَّ دروسها حريصة كل الحرص على أن يبدو كل شئ حقيقيًا ، ولهذا السبب مازالت هذه الذكريات مطبوعة فى ذاكرتى حتى الآن !

وكنا نقرأ ونمضى فى الدراسة خارج المنزل لأننا كنا نحب الغابات والمروج الفسيحة المشمسة أكثر من الأماكن المغلقة ، ولهذا السبب فإن روائح أشجار الصنوبر و الكروم البرية ظلت دائمًا وثيقة الصلة فى ذهنى بدروسى المبكرة ! . وكان لكل نوع من الكائنات الحية دور فى عملية تعليمى .. فأنا قد تعلمت من كل شئ يمكنه أن يئز أو يطن أو يغرد أو يزهر، حتى أننى كنت أمسك الحشرات بين يدى لتشدو بالأصوات التى كنت أعتبرها أعذب وأحلى الأصوات ، كما كنت أضع الكتاكيت الصغيرة الرخوة الأجسام بين راحتى ، وأمسك بالأزهار البرية الجميلة بأصابعى .. وأشعر بالريح كلما هبت بين أعواد الذرة ، وأشعر بحصانى ينفث الهواء من منخريه كلما هممنا بالاستعداد لركوبه.

وفى بعض الأحيان كنت أنهض فى الفجر وأخرج إلى الحديقة والندى لايزال مستقراً على الأعشاب والأزهار ، ومازلت أذكر كيف كنت أصافح الورود الغضة بيدى فأشعر بأن سائر الأزهار تلوح لى بالتحية . وفى بعض الأحيان كنت أمسك بحشرة يتصادف وجودها داخل زهرة قمت بقطفها ، فأشعر بأزيز احتكاك جناحيها معًا ، ذلك الأزيز الناتج عن شدة خوف هذا المخلوق الضئيل حين أمسكه بيدى !

ومن المناطق التى أحببتها أيضاً حديقة نمت فيها أشجار الفاكهة ، وكانت الفاكهة تبدأ فى النضج فى أوائل شهر يوليو فتبدو حبات الخوخ الكبيرة الغضة كأنها ستسقط بين يدى . وكانت الريح تجعل ثمار التفاح تتساقط على الأرض عند قدمى ، فآخذ فى جمعها فى ذيل ثوبى وأنا أشعر بالسعادة التى يشعر بها الأطفال عادة فى مثل هذا الموقف ، ثم أهرع عائدة بها إلى المنزل.

وتمثلت نزهتنا المفضلة فى ذلك الوقت فى السير على شاطئ نهر تينيسى حيث كنا نقضى أوقاتًا طويلة ، وفى ذلك المكان لعبت كثيراً وتعلمت مبادئ الجغرافيا ، وكنت أبنى سدوداً من الأحجار الصغيرة ، وأصنع جزراً وبحيرات ، وأحفر أنهاراً .. كنت أفعل كل ذلك على سبيل اللهو والمرح ودون أن أعلم أننى أتلقى

دروساً . وفى ذلك المكان استمعت أيضاً فى دهشة متزايدة إلى الآنسة سوليفان وهى تصف لى كوكب الأرض الكروى الضخم بما عليه من براكين وأنهار جارية وثلاجات [١] ، وكذلك الكثير الكثير من الأشياء العجيبة الغريبة ! . وكانت معلمتى تصنع خرائطَ مجسمة من الطين ليتسنى لى أن أتحسس الجبال والوديان وأتتبع مسارات الأنهار بأصابعى ، وقد أحببت ذلك أيضًا . وكان هناك شئ واحد غامض يحيرنى وهو انقسام العالم إلى مناطق ، وكذلك وجود القطبين الشمالى والجنوبى ! . وكانت معلمتى تمد بعض الخيوط لتوضح لى حدود مناطق العالم المختلفة ، وتستعمل عصاتين صغيرتين لتمثيل القطبين . ولذلك فما زال تفكيرى حتى اليوم يذهب إلى دوائر الخيط كلما أشار واحد من الناس إلى المنطقة المعتدلة [٢] ، بل ربما كان بوسع أى شخص أن يجعلنى أعتقد أن الدببة البيضاء (الدببة القطبية) تتسلق القطب

(١) الثلاجات المشار إليها هى الثلاجات الموجودة فى الطبيعة glaciers ، وهى عبارة عن كتل هائلة من الثلوج تغطى قمم الجبال العالية بصورة دائمة ، وتتحرك أجزاء منها دائمًا إلى أسفل الوديان ، ويتجدد بدلاً منها بتكاثف بخار الماء الموجود فى الجو بمقادير هائلة على تلك القمم الجبلية .

(٢) المنطقة المعتدلة temperate zone : هى المنطقة من سطح الكرة الأرضية التى تتميز بمناخ معتدل (من حيث درجات الحرارة) على مدار العام . وهناك فى الواقع منطقتان معتدلتان :

* المنطقة المعتدلة الشمالية : وتقع بين مدار السرطان والدائرة القطبية الشمالية .
* المنطقة المعتدلة الجنوبية : وتقع بين مدار الجدى والدائرة القطبية الجنوبية .

الشمالى [٣] .

ويبدو لى أن الحساب هو العلم الوحيد الذى لم أكن أحبه ، فمنذ البداية لم يكن لدى اهتمام بذلك العلم الذى ينْصَبُّ اهتمامه على الأعداد .. وقد حاولت الآنسة سوليڤان أن تعلمنى كيف أجرى الحسابات باستخدام مجموعات الخرز المنظومة فى الخيوط ، وكيف أجمع وأطرح عن طريق استخدام مجموعات من أعواد القش ، لكننى كنت دائمًا أفتقر إلى الصبر اللازم لإجراء ذلك العمل على أكثر من خمس أو ست مجموعات فى وقت واحد . وكنت متى قمت بذلك أشعر بأننى أنجزت ما يكفى لذلك اليوم وأسارع إلى خارج المنزل لألعب !

وبنفس الطريقة السهلة البسيطة تلقيت دروسى عن حياة الحيوان والنبات، وقد أهدانى أحد الأصدقاء مجموعة من الحفريات [٤] عبارة عن أصداف صغيرة رائعة التكوين وقطع

(٣) القطب الشمالى North pole : النقطة الواقعة فى أقصى شمال الكرة الأرضية، وهو ليس جبلاً كى تتسلقه الدببة القطبية . ويقابل القطب الشمالى نقطة أخرى تقع فى أقصى جنوب الأرض وتسمى «القطب الجنوبى South pole» .

(٤) الحفريات fossils : نباتات أو حيوانات قديمة عاشت فى عصور جيولوجية سابقة ثم ماتت وتحجرت وظلت محتفظة بمظهرها الخارجى . وقد تكون الحفريات عبارة عن أجزاء فقط من النباتات والحيوانات ، كما قد تكون مجرد آثار تلك الكائنات مطبوعة على الطين المتحجر .

صغيرة من الأحجار تحمل آثار أقدام طيور أو آثار نباتات السَّرْخَس الدقيقة التكوين . وكانت تلك الأشياء هى المفاتيح التى فتحت لى أبواب كنوز جديدة من المعرفة ، فقد رحت أنصت والرعشة تنتابنى إلى قصص الآنسة سوليڤان عن الوحوش العملاقة المخيفة ذات الأسماء المعقدة التى عاشت وانقرضت [٥] قبل ظهور الإنسان على الأرض. ومن الغريب أننى مكثت لفترة طويلة أحلم بتلك المخلوقات الغريبة !

وفى مرة أخرى أهديت إلىَّ صدفة جميلة ، وعرفت فى دهشة الأطفال وسرورهم أن مخلوقًا بحريًا صغيرًا قد بنى تلك الصدفة ليعيش بداخلها ، كما عرفت أيضاً أن أجسام الحيوانات البحرية الصغيرة قد صنعت جزراً بأكملها فى المحيط الهادى [٦] وأن الكثير من البلاد لديها تلال جيرية بيضاء نتجت فى العصور الجيولوجية البعيدة من تراكم أجسام تلك المخلوقات البحرية

(٥) الانقراض extinction : موت نوع من الكائنات الحية بجميع أفراده بحيث يختفى تماماً ويندثر . والوحوش المشار إليها هى «الديناصورات» .

(٦) تشير هيلين إلى الجزر المرجانية Coral islands : التى تصنعها تجمعات كبيرة من حيوانات المرجان البحرية ، حيث تتبقى بعد موتها المادة الصلبة المرجانية الموجودة فى أجسامها لتكون هذه الجزر . وبالإضافة إلى المحيط الهادى توجد الجزر المرجانية فى مناطق بحرية أخرى منها البحر الأحمر الذى توجد به مجموعة من الجزر والحواجز المرجانية الرائعة التى تعد ضمن ثروات مصر الطبيعية .

الصغيرة . وبعد أن عرفت الكثير الكثير من المعلومات المثيرة عن الحياة وعن عادات الكائنات التى تعيش فى البحر ، قرأت لى معلمتى قصيدة رائعة اسمها «قوقع النوتى» ، وهى قصيدة تروى كيف يبنى قوقع النوتى صدفته ليعيش داخلها ، لكن الآنسة سوليفان شرحت لى أن القصيدة تتحدث أيضًا وبطريقة غير مباشرة عن كيفية نمو عقل الإنسان .. فالنوتى يحول المواد التى يحصل عليها من الماء إلى جزء من مادة جسمه ، وبالطريقة ذاتها فإننا نحول ما نتعلمه من معارف وأفكار إلى جزء من تركيبتنا العقلية والنفسية .

وتلقيت أيضًا دروسًا عن نمو النبات ، إذ أحضرنا زنبقة ووضعناها بجانب نافذة تمر من خلالها أشعة الشمس ، وسرعان ماراحت البراعم الخضراء تتفتح بالكيفية التالية : أخذت السبَلات الخضراء الرفيعة المحيطة بالأزهار تتفتح ببطء لكى تتيح لنا – على ما كنت أعتقد – أن نرى ما بداخلها من الجمال ، ثم أعقب ذلك تفتح البتَلات (الأوراق الملونة المكونة للزهرة) . وعملية التفتح هذه ما إن تبدأ حتى تتقدم بسرعة وبطريقة منتظمة تنتهى بالتفتح الكامل للأزهار ، وهناك دائماً برعم أكبر من سائر البراعم ويسبقها فى التفتح ، وكانت البراعم تتفتح واحداً فى إثر الآخر إلى أن يتحول النبات كله إلى كيان رائع الجمال فواح العبير .

وذات مرة كان لدينا أحد عشر حيوانا من حيوانات أبو ذنيبة[٧] فى إناء زجاجى وضعناه على حافة نافذة مليئة بالنباتات ، ومازلت أتذكر ذلك الشغف الذى كان يملأ جوانحى وأنا أقوم باستكشاف تلك الكائنات اللطيفة ، وكان من دواعى المرح أن أضع يدى فى الإناء الزجاجى فأشعر بحيوانات أبو ذنيبة تسبح حولها وتنزلق بين أصابعى . وفى أحد الأيام قفز أبو ذنيبة طموحاً من الأناء وسقط على الأرض ، وحين وجدته بدا لى أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وكانت العلاقة الوحيدة الدالة على الحياة حركة ضعيفة يقوم بها أبو ذنيبة ، لكننى حين أعدته إلى الماء إذا به يسارع إلى السباحة هنا وهناك كما لو كان فى غاية السعادة .. لقد قفز أبوذنيبة قفزته الكبيرة ورأى العالم العظيم من حوله ، وبعدها صار قانعاً بالبقاء فى إنائه الزجاجى اللطيف حتى كبر وتحول إلى ضفدع ، ثم ذهب ليعيش فى البركة المليئة بالنباتات المورقة الواقعة فى طرف الحديقة..

وهناك مكث يشدو بأحلى الأصوات ويحيل ليالى الصيف إلى ليالى ساحرة بديعة .

(٧) أبو ذنيبة tadpale : حيوان صغير يعتبر أحد أطوار حياة الضفدعة ، ويتميز بوجود ذيل طويل وجسم شبيه بالسمكة ووجود الخياشيم التى يتنفس بها فى الماء . وعندما يكبر ويتحول إلى ضفدعة يختفى الذيل بالتدريج وتختفى الخياشيم حيث تعتمد الضفدعة الكاملة على التنفس الرئوى والتنفس عن طريق الجلد .

تلك هى بعض الأساليب التى تلقيت بها العلم من الحياة ومن الطبيعة ذاتها ، ففى أول الأمر كنت أبشر بمجموعة من احتمالات النجاح المحدودة، وجاءت معلمتى الآنسة آن سوليفان لتتعهد تلك الاحتمالات برعايتها وتحولها إلى نجاحات محققة .. فهى ولاشك الشخص الوحيد الذى تمكن من النفاذ إلى أعماق نفسى وروحى ، وقد دأبت منذ وصولها على أن تظهر لى الجمال الماثل فى كل شئ ، وسعت دائماً إلى ملأ حياتى بالحب والمرح والبهجة والهناء وحرصت على جعلها ذات معنى وهدف لكى أصبح - برغم ظروف إعاقتى - مواطنة مفيدة لمجتمعها لا عالة عليه !

****

الفصل الرابع

كان أول عيد يحل بنا بعد مجيء الآنسة سوليفان إلى توسكومبيا يعتبر حدثاً عظيماً ، وفيه قام كل فرد من أفراد الأسرة بإعداد مفاجأة لى ، لكن أكثر ما سرنى هو أننى أنا والآنسة سوليفان أعددنا مفاجآت لكل شخص آخر. وكان الغموض الذى أحاط بالهدايا من أكبر دواعى سرورى واهتمامى ، وقد فعل أصدقائى كل ما بوسعهم من أجل إثارة اهتمامى ، فقاموا بتهجى بعض العبارات على يدى ثم توقفوا عن إكمال الجمل متظاهرين بأنهم أبلغونى تقريباً بالسر . وانشغلت أنا والآنسة سوليفان بلعبة التخمين التى أفادتنى فى تعلم الكثير عن استخدامات اللغة أفضل من أى دروس أخرى ،كان من الممكن أن أتلقاها ، ففى كل أمسية كنا نجلس حول نار المدفأة الوهاجة ونأخذ فى ممارسة لعبة التخمين هذه، وصارت اللعبة تزداد إثارة أكثر فأكثر كلما اقترب موعد العيد!

وفى اليوم السابق للعيد أقام تلاميذ مدرسة توسكومبيا الابتدائية حفلاً دعونى إليه ، وكانت تتوسط قاعة الاحتفال شجرة جميلة مضاءة بشموع صغيرة ومغطاة بمواد الزينة والهدايا .. فغمرتنى السعادة لدرجة أننى رحت أمرح حول الشجرة، وحينما علمت

بوجود هدية لكل طفل شعرت بفرحة غامرة خصوصًا حينما علمت بأن أولئك الناس الطيبين الذين أعدوا الشجرة قد كلفونى بتسليم الهدايا للأطفال . وفى غمرة سرورى بهذا الدور الذى أنيط بى لم أتوقف لأنظر إلى الهدايا التى خصصوها لى ، وحينما فرغت مما كلفونى به كان شوقى لبداية حفل العيد يكاد يخرج عن إطار سيطرتى ، إذ علمت أن هذه الهدايا التى تلقيتها لم تكن هى الهدايا التى احتفظ أصدقائى بأسرارها ، وأخبرتنى الآنسة سوليفان أن الهدايا التى سوف أتلقاها ستكون أروع من التى تلقيتها قبل ذلك .. لكننى كنت قانعة مع ذلك بالهدايا التى تلقيتها من الشجرة ، وقررت أن أدع الآخرين حتى الصباح ثم أنظر ماذا سيقدمون لى .

وفى تلك الليلة وبعد أن علقت جوربى [1] ، بقيت ساهرة فى فراشى ، وكنت أتظاهر بالنوم . وفى آخر الأمر غلبنى النوم وبين ذراعى عروسة جديدة ودب جديد ، وفى الصباح التالى كنت أنا التى أيقظت جميع أفراد الأسرة لأهنئهم بالعيد ، فإذا بى أجد المفاجآت فى كل مكان : فى جوربى، وعلى المنضدة ، وعلى الكراسى ، وعلى الباب .. حتى أنى لم أكن أستطيع السير دون أن أتعثر فى إحدى هدايا العيد الموضوعة داخل لفائف جميلة

(١) من عادة الأطفال فى بلاد الغرب أن يقوموا فى ليلة العيد بتعليق بعض الجوارب الطويلة إلى جوار فراشهم ، فيقوم الأبوان بوضع هدايا العيد بها .

بديعة المنظر ! .

كانت أفضل الهدايا فى نظرى هى عصفور الكناريا الذى أهدته لى معلمتى ، إذ كان هذا العصفور الصغير – واسمه «تيم» – أليفًا جدًا حتى أنه كان يقف على إصبعى ويأكل من راحة يدى . وقد علمتنى الآنسة سوليفان كيف أعتنى بطائرى الأليف ، ففى كل صباح عقب الإفطار كنت أعد له حمامه وأنظف قفصه وأرتبه وأملأ مابه من أوعية بالحبوب الطازجة والماء النقى .

وذات صباح تركت قفص تيم على المقعد المجاور للنافذة وذهبت لإحضار بعض الماء لحمام الطائر ، وحينما عدت شعرت بقطة كبيرة تمرق إلى جانبى وتحتك بى وأنا أفتح باب القفص .. وفى أول الأمر لم أتحقق مما حدث ، لكننى عندما وضعت يدى داخل القفص ولم يجاوبنى تيم بحركة أجنحته ولم تسارع قدماه الصغيرتان إلى الإمساك بإصبعى ، عرفت أننى لن أرى طائرى الصغير المغرد الوديع مرة أخرى .

كان الحدث المهم التالى فى حياتى هو زيارتى إلى بوسْطُن فى مايو ١٨٨٨ ، إذ مازلت أذكر الاستعدادات التى قمنا بها لذلك كما لو كانت جرت بالأمس فقط ..

وأذكر رحيلى مع معلمتى ووالدتى ، ثم وصولنا فى نهاية المطاف إلى بوسطن . كانت تلك الرحلة مختلفة كثيرًا عن الرحلة

التى قمت بها قبل ذلك بعامين إلى بلتيمور ! فهذه المرة لم أكن تلك المخلوقة الصغيرة الممتلئة بالعصبية والقلق ، والتى كانت بحاجة إلى اهتمام وعناية كل ركاب القطار لكى تهدأ نفسها كما كان الحال فى الماضى .. بل جلست فى هذه المرة فى هدوء إلى جانب الآنسة سوليڤان ، أنصت باهتمام وشغف لكل ما تقوله لى عما كانت تراه من خلال نافذة القطار : نهر تينيسى الرائع الجمال، وحقول القطن الشاسعة ، والتلال والغابات ، وحشود الناس المستغرقين فى الضحك على المحطة والذين كانوا يلوحون بأيديهم فى وداع أصدقائهم الموجودين على متن القطار .. وعلى المقعد المقابل لى جلست عروستى المصنوعة من القماش «نانسى» وقد ارتدت فستاناً جديداً وقبعة جديدة ، وراحت تنظر لى بعينيها المصنوعتين من خرزتين .. وفى بعض الأحيان حينما كنت أنصرف عن الاهتمام بما كانت تصفه لى الآنسة سوليڤان ، كنت أتذكر وجود نانسى فآخذها بين ذراعى ، لكننى معظم الوقت كنت أحاول التغلب على شعورى بإهمالى لها بأن أجعل نفسى أعتقد أنها نائمة!

وقبل أن أتوقف عن حديثى هذا عن نانسى سوف أسرد عليكم تجربة حزينة عانت منها صديقتى العروسة عقب وصولنا إلى بوسطن ، ذلك أنها اتسخت ، فقامت المرأة المختصة بغسل الملابس فى مؤسسة «بركنز» التى كنا فى زيارتها بأخذ نانسى سراً لتجعلها

تستحم . وكان هذا الأمر فوق احتمال عروستى المسكينة ، فعندما رأيتها بعد ذلك لم تكن نانسى أكثر من قطعة من القطن غير محددة المعالم حتى لم يعد بوسعى أن أتعرف عليها لولا وجود العينين المصنوعتين من الخرزتين اللتين كانتا تنظران إلىّ نظرة تنم عن الحزن واليأس من الحياة .

وحينما بلغ القطار آخر الأمر محطة بوسطن شعرت كما لو أن حلماً جميلاً قد تحقق .. وبمجرد وصولى إلى مؤسسة بركنز للمكفوفين بدأت أرتبط بصداقات بكل الأطفال الصغار فاقدى البصر ، وفرحت كثيراً حين وجدتهم على علم بأبجدية الأيدى ، إذ كان من دواعى سعادتى أن أتحدث إلى الأطفال بنفس لغتى ، لأننى حتى ذلك الوقت كنت أبدو كأجنبى يتحدث عن طريق مترجم ، أما الآن فقد أصبحت فى بلدى وبين أهلى ومن هم فى مثل ظروفى . ومع ذلك مضى بعض الوقت قبل أن أتحقق من أن أصدقائى الجدد مكفوفين ، فقد كنت مدركة لكونى أجمع بين فقد البصر وفقد المقدرة على السمع ، لكننى بطريقة ما اعتقدت أنه مادام هؤلاء الأطفال قادرين على السمع ، فهم قادرون أيضاً على الرؤية . وسرعان ما اعتدت على قيام هؤلاء الأطفال بوضع أصابعهم على أصابعى ونحن نتبادل الحديث باستخدام أبجدية الأيدى ، وبعد أيام قلائل شعرت بأننى فى بيتى تماماً . وكنت أتطلع فى شغف إلى تجربة سارة فى إثر أخرى كلما دارت الأيام

سريعًا ، وصرت واثقة من أنه لم يبق الكثير من العالم دون أن أراه ، فقد كنت أعتقد أن بوسطن هى بداية العالم وأنها أيضاً منتهاه !

وقمنا أثناء وجودنا فى بوسطن بزيارة «بنكرهيل» ، وهناك تلقيت أول دروسى فى علم التاريخ .. حيث عرفت قصة الأبطال الشجعان الذين قاتلوا فى نفس ذلك المكان الذى كنا نقف فيه[2] ، تلك القصة التى هزت مشاعرى كثيراً . وقد صعدت لأعلى النصب التذكارى المقام من أجل تخليد ذكرى المعركة ورحت أعد درجات السلم وأسائل نفسى عما إذا كان الجنود الذين خاضوا القتال قد تسلقوا هذه الدرجات لكى يطلقوا الرصاص على العدو القابع على الأرض الممتدة أسفل النصب[3] !

وذهبنا فى اليوم التالى إلى «بليموث» عن طريق البحر ، وكانت تلك رحلتى الأولى على مياه المحيط ، بل والمرة الأولى التى أستقل فيها باخرة . كانت الباخرة تنبض بالحياة والحركة ، إلا أن هدير المحركات جعلنى أشعر بأن الدنيا ترعد ، وبدأت أبكى

(٢) معركة تل بنكر (أو بنكرهيل Banker Hill معركة مهمة من معارك الثورة الأمريكية ضد الحكم البريطانى . وقد دارت المعركة يوم ١٧ يونية ١٧٧٥ على تل يقع مقابل تل بنكر فى «تشارلستون» بالقرب من بوسطن ، وفيها صمد الثوار الأمريكيون فى وجه هجمتين للجيش البريطانى ، ثم تراجعوا أمام الهجمة الثالثة العنيفة .

(٣) كانت هيلين وقت الزيارة مجرد طفلة ، ولم تنتبه إلى أن النصب التذكارى لم يكن موجوداً أثناء المعركة بل أقيم بعدها تمجيداً لذكراها !

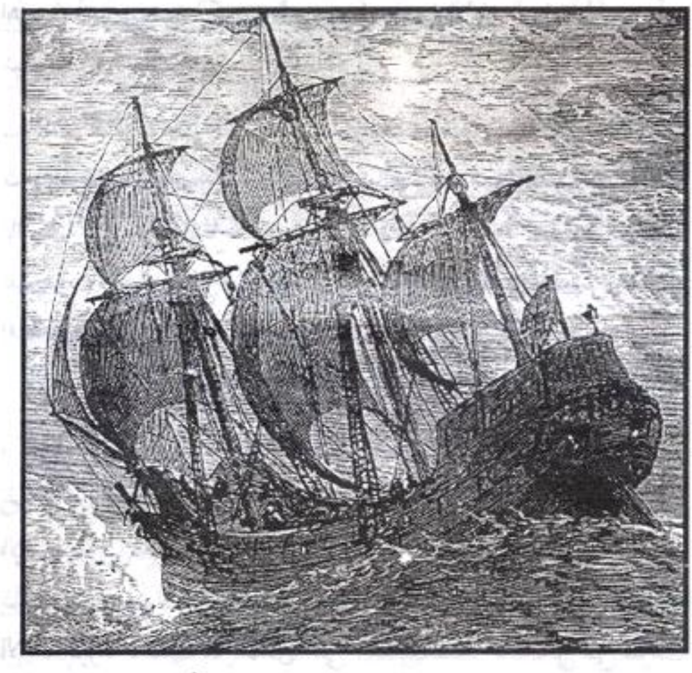
لأننى اعتقدت أنه لن يكون باستطاعتنا التمتع بالنزهة خارج المنزل كما كنا نخطط لذلك ! . وأظننى فى ذلك الوقت كنت أكثر اهتماماً بالصخرة الكبيرة التى رسا عليها الآباء الرواد[4] من أى شئ آخر فى بليموث .

لقد كان بوسعى أن ألمس تلك الصخرة وربما جعل هذا قصة مجئ أولئك الرواد والأعمال الباهرة التى قاموا بها تبدو أكثر واقعية بالنسبة لى .. فلطالما كنت أمسك بيدى نموذجًا صغيراً لصخرة بليموث أهداه لى رجل فاضل ، ومازلت أشعر بملمس الأرقام 1620 ، وأفكر فى القصة الطريفة الخاصة بأولئك الآباء الرواد .

لقد كان الآباء الرواد فى مخيلتى الطفولية ، رجالاً شجعانًا وكرماء للغاية، وقد أعجبنى فيهم سعيهم إلى وطن جديد فى أرض غريبة ، وآمنت بأنهم كانوا يتطلعون إلى تحقيق حرية زملائهم فى الإنسانية إلى جانب حريتهم هم ، لكن أدهشنى وأثار إحباطى بعد ذلك بعدة سنوات أن أعلم بأعمال الاضطهاد التى اقترفها هؤلاء الآباء الرواد ، تلك الأعمال التى تجعلنا نشعر بالخجل فى الوقت

(٤) الآباء الرواد Pilgrim Fathers هم أول مجموعة من الناس تستوطن أرض ما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية ، وقد كانوا من الإنجليز المضطهدين دينيًا لانتمائهم لطائفة البيوريتان (أى المتطهرين)وقد رست السفينة التى حملتهم واسمها «مايفلاور Mayflower » على صخرة بليموث بولاية ماساتشوستس عام ١٦٢٠ م

نفسه الذى لانزال فيه نعبر عن إعجابنا بشجاعة ومقدرة هؤلاء الناس الذين ورثنا عنهم بلادنا الجميلة .



السفينة «مايفلاور may flower » التى حملت المستوطنين الأوائل للولايات المتحدة المعروفين باسم الأباء الرواد .. تذكرتها هيلين وهى تزور صخرة بليموث Plymouth وهو ميناء طبيعى رست عليه السفينة وأنزلت الأباء الرواد عام ١٦٢٠

وقبيل أن تغلق مؤسسة بركنز أبوابها فى ذلك الصيف تمت الترتيبات من أجل أن أقضى أنا ومعلمتى عطلتنا فى «بروستر»

الواقعة على «كيب كود»[٥] مع صديقتنا العزيزة مسز «هوبكنز» ، وكنت مسرورة كثيراً لأننى سمعت الكثير من الأشياء الرائعة عن البحر ، وكانت تجاربى معه هى أفضل ما أتذكره عن ذلك الصيف. وكنت دائمًا أعيش بعيداً عن المحيط ، ولم أنعم قط باستنشاق الهواء الممزوج برائحة الملح ، لكننى كنت قد قرأت وصفاً للمحيط فى كتاب كبير عنوانه «عالمنا» ، فملأنى ما قرأته بالدهشة وشعرت برغبة جارفة فى أن ألمس البحر المائج وأشعر بهدير أمواجه ، ومن ثم صرت فى غاية الاستثارة والشوق حين علمت أن هذا الحلم يوشك أن يتحقق .

وبمجرد أن ارتديت رداء السباحة انطلقت أجرى على الرمل الدافئ وأقفز فى الماء البارد ، وشعرت بالأمواج العالية تتدافع فى صعود وهبوط ، فملأت حركة الماء نفسى بالسرور . لكن سعادتى لم تلبث أن تحولت إلى فزع ، فقد اصطدمت قدمى بصخرة وأعقب ذلك اندفاع الماء فوق رأسى ، فحاولت أن أجد شيئًا أتشبث به ، لكن لم يكن هناك شئ آخر سوى الماء والأعشاب البحرية التى راحت الأمواج تقذف بها فى وجهى .. ففقدت كل مقدرة على مواجهة هذا الموقف ، وبدت الأمواج كما لو كانت

(٥) كيب كود Cape Cod (ومعنى الاسم : رأس كود) عبارة عن شبه جزيرة فى ولاية ماساتشوستس تقع على المحيط الأطلسى .

تتلاعب بى وتتقاذفنى بينها . كان الموقف مرعبًا للغاية ، فقد انزلقت الأرض الراسخة الآمنة من تحت أقدامى ، وبدا لى كأنه لايوجد فى العالم بأسره شئ سوى الماء . وفى نهاية المطاف بدا أن المحيط قد سئم من لعبته الجديدة ، فألقى بى ثانية نحو الشاطئ .. ولم تكد تمر لحظة إلا وكانت معلمتى تحتوينى بين ذراعيها ! وكم كنت سعيدة حين تبدد خوفى وسيطرت على نفسى وألقيت إلى معلمتى بالسؤال العجيب التالى : «من الذى وضع الملح فى الماء ؟» .

وبعد أن انتعشت من تجربتى الأولى الرهيبة مع الماء ، مضيت أستمتع بالجلوس على صخرة كبيرة وأنا برداء البحر ، بينما الأمواج تلاطم الصخرة ويندفع منها لأعلى من حين لآخر رشاش من الماء كان رذاذه يتناثر حولى وتغمرنى قطراته . وكنت أشعر بالصخور الصغيرة على الشاطئ وهى تتحرك كلما ألقت الأمواج بأثقالها على الشاطئ .. وبدا الشاطئ بأسره - بل والهواء أيضًا - كما لو كان يهتز ويتحرك بتأثير حركة الموج ، وكان باستطاعتى أن أشعر بالأمواج وهى تتراجع لتستعد لقفزة جديدة على الشاطئ أشد وأكثر ارتفاعًا من سابقتها . فرحت أتشبث بالصخرة بكل ما أوتيت من قوة .. وكان هجوم البحر على الشاطئ يثير شغفى

ويمتعنى ، لكنه فى الوقت ذاته كان يثير فزعى واضطرابى .

لم يكن بوسعى على الإطلاق أن أمكث لفترة طويلة على الشاطئ ، وإن كنت أعشق هواء البحر العليل المشبع برائحة الملح ، وأعشق الأصداف والصخور الصغيرة والأعشاب البحرية وما بها من مخلوقات صغيرة ، وكان كل ذلك يثير اهتمامى ويدهشنى بدرجة كبيرة . وفى ذات يوم جذبت الآنسة سوليفان انتباهى إلى شئ غريب وجدته فى مياه الشاطئ الضحلة ، ولم يكن ذلك الشئ إلا سرطانًا بحريًا (كابوريا أو أبو جلمبو) من النوع المسمى «حدوة الحصان» .. وهذا أول مخلوق من ذلك النوع أراه على الإطلاق ، وقد أخذت أتحسسه ورأسى تدور به فكرة أنه كائن غريب للغاية لكونه يحمل بيته على ظهره ! وخطر لى فجأة أنه ربما يصلح كحيوان أليف لطيف للغاية ، فأمسكت به من ذيله بكلتا [٦] يدى وحملته إلى البيت وأنا أشعر بسرور طاغ لكونى تمكنت من القيام بذلك ، إذ كان السرطان ثقيلاً وقد بذلت كل مالدى من قوة لكى أجره لمسافة ثمانمائة متر . وقد رجوت الآنسة سوليفان أن تضعه فى وعاء ملئ بالماء فى فناء المنزل وكنت على ثقة من أنه سيبقى آمنًا هناك ، لكننى حين ذهبت فى اليوم التالى لإلقاء نظرة

(٦) أغلب الظن أنها أمسكت به من كَلّابته (أى : ذراعه القابضة) ، لأن السرطان البحرى (أبو جلمبو) ليس له ذيل .

عليه وجدته اختفى دون أن يدرى أحد كيف هرب أو أين ذهب!.
وشعرت لفورى بخيبة أمل مريرة ، لكننى تحققت بعد ذلك أنه أمر يتنافى مع الحكمة ومقتضيات الرحمة أن أجعل مثل هذا المخلوق المسكين يعيش بعيداً عن ماء البحر الذى هو موطنه الطبيعى! وبعد برهة من الوقت شعرت بالسعادة حين خطر ببالى احتمال أن يكون ذلك السرطان قد عاد إلى مياه الشاطئ مرة أخرى .

****

الفصل الخامس

في الخريف عدت إلى بيت أسرتى فى ولاية ألاباما بالجنوب وقلبى ملىء بالذكريات السعيدة ، وحين أستعيد الآن ذكرى تلك الزيارة إلى الشمال تتدافع إلى ذهنى العديد من التجارب المفيدة التى تبدو لى كما لو كانت بدايات كل الأشياء .. لقد وضعت تلك الرحلة عند قدمىَّ كنوز عالم جديد جميل ، وفيها لم أهدأ لحظة بل كانت حياتى مليئة بالحركة تماماً كما لو كانت إحدى الحشرات الضئيلة التى تعيش كل حياتها خلال يوم واحد قصير . وفيها أيضا التقيت بالكثيرين من الناس الذين مضوا يتحدثون إلىَّ بالتهجى على أصابعى ، وكانت تجربة جديدة رائعة أن أتمكن من تبادل الأفكار مع مثل هذا العدد الكبير من الناس ذوى المشارب المختلفة .

وقضيت شهور الخريف مع أسرتى فى منزلنا الصيفى ، الواقع على جبل يبعد ٢١ كيلو متراً من توسكومبيا .

وهذا المنزل يسمى «مَحْجر السَراخِس» ، نظراً لوجود محجر قديم للحجر الجيرى بالقرب منه . وعبر المحجر كانت تجرى ثلاثة جداول مياه صغيرة تندفع فوق الصخور التى بدت كما لو كانت

تحاول اعتراض مجراها ، وكانت نباتات السرخس[١] تنمو فى كل أنحاء المحجر على نحو جعلها تغطى كتل الحجر الجيرى ، بل كانت فى بعض الأماكن تغطى حتى جداول الماء الصغيرة .. أما باقى الجبل فكانت تغطيه الأشجار ، بما فى ذلك أشجار السنديان (البلوط) الضخمة وأشجار الصنوبر الرائعة المنظر . وكانت بعض تلك الأشجار مغطاة بدورها بأشجار الكروم ، وفى بعض الأماكن كانت أشجار الكروم تمتد بين الأشجار الكبيرة من واحدة لأخرى ، وتحصر بينها فراغات مأهولة دائماً بالفراشات وأنواع أخرى من الحشرات . كما كانت هناك أيضاً أشجار الفاكهة التى تنشر عبيراً فواحاً فى أنحاء تلك الغابات . وكنا نفضل القيام بالنزهات فى فترات ما بعد العصر ، ففى ذلك الوقت كانت تتضوع الروائح الزكية الصاعدة من الأرض آخر كل نهار .

وكان منزلنا مجرد مسكن بسيط مبنى فى موقع رائع فوق قمة الجبل بين أشجار السنديان والصنوبر ، وغرفه الصغيرة مصطفة على جانبى ردهة طويلة مفتوحة ، وتحيط به من جميع الاتجاهات شرفة مسقوفة متسعة كانت تهب عليها دائماً الرياح الجبلية المحملة بأريج الغابات الزكى .. وكنا نقضى معظم أوقاتنا فى الشرفة ، حيث نعمل ونأكل ونلعب . وبالقرب من الباب الخلفى نمت

(١) نباتات السَّرْخَس (أو السراخس) Ferns : نباتات عديمة الأزهار والبذور ، وتتكاثر بإنتاج وحدات شبيهة بالجراثيم تسمى «الأبواغ» .

شجرة ضخمة بنيت حولها درجات سلم الباب ، وكانت الأشجار النامية عند الشرفة الأمامية قريبة للغاية منها إلى حد كان يمكننى معه أن ألمسها وأن أشعر بالرياح وهى تهز أغصانها ، وأشعر كذلك بتساقط أوراقها فى فصل الخريف .

كان الكثير من الزوار يأتون إلى محجر السراخس ، وكان الرجال يقيمون عادة مخيماً ويتحلقون فى الأمسيات حول نار المخيم حيث يأخذون فى اللعب المباح وسرد الحكايات الطريفة عن تجاربهم وخبراتهم فى قنص الطيور والحيوانات وصيد السمك واقتفاء آثار الظباء عبر الغابة . وحين كنت أستمع إلى تلك القصص [٢] كان يسيطر علىّ الاعتقاد بأنه حتى الأسود [٣] والدببة لم يكن بوسعها الإفلات من أيدى هؤلاء الصيادين الجبابرة. وحين كانت جماعة الأصدقاء المرحين تنفض ليلاً ، كانت الكلمات الأخيرة المتبادلة بينهم عادة تدور حول خططهم

(٢) الاستماع هنا مجازى ، فهيلين تستمع عن طريق أبجدية الأيدى .. ولابد من وجود شخص آخر يستمع وينقل إلى هيلين ما يسمعه عن طريق تلك الأبجدية !

(٣) فى الأمريكتين لاتوجد الأسود العادية المعروفة فى إفريقيا وآسيا ، بل يوجد نوع من حيوانات الفصيلة القطية يسمى الكوجر Cougar أو البيوما Puma أو أسد الجبل Mountain lion وهو حيوان مفترس شديد البأس ويشبه فى مظهره اللبوءة لكنه أصغر حجماً .. وان كانت هيلين تذكر الأسود والدببة على سبيل التهكم على هؤلاء الزوار الميالين إلى المبالغة برغم عدم خبرتهم بالصيد !

للصيد فى اليوم التالى . وكان الرجال ينامون فى الردهة الواقعة خارج بيتنا على أسرة كانت توضع بها خصيصاً من أجلهم حين يقومون بزيارتنا ، وكان بمقدورى أن أشعر بخطيط الصيادين وبزمجرة كلابهم .

واعتدت فى تلك الفترة أن أصحو فى الفجر على رائحة القهوة وعلى دبيب أقدام الرجال حين يروحون ويجيئون وهم يمنون أنفسهم بحظ عظيم فى موسم الصيد . وكان بوسعى أيضاً الشعور بوقع حوافر الخيول التى كان الرجال يركبونها فى رحلتهم من المدينة ويربطونها تحت الأشجار فترة الليل ، ومن الطريف أن الخيول – مثلها مثل الصيادين – كانت تتعجل الذهاب فى رحلة الصيد . وفى نهاية المطاف كان كل شئ يصبح مهيئاً للرحلة ، فيعاود الصيادون الركوب ليغادروا المكان وهم يلوحون بأيديهم فى مرح ، بينما كلاب الصيد تركض أمامهم جذلة مسرورة .

وفى الصباح الباكر كنا نعد الشواء فى الهواء الطلق ، إذ كان الخدم يوقدون ناراً فى قاع حفرة عميقة فى الأرض ، وينصبون أعمدة خشبية حول فوهة الحفرة ، ويعلقون اللحم بين تلك الأعمدة ويأخذون فى إدارته حول محوره لينضج . وكانت رائحة اللحم المشوى الشهية التى تتضوع فى محجر السراخس تجعلنى أشعر بالجوع قبل تجهيز المائدة بفترة طويلة .

وفى خضم تلك الأحداث المثيرة كان الصيادون يعودون وقد بدا الإرهاق عليهم وعلى خيولهم وكلابهم من فرط المشقة ووقدة الحر ، وارتسمت على قسماتهم مشاعر الإحباط الناجمة عن عجزهم عن صيد ظبى واحد . والطريف أن كل رجل منهم كان يقول : إنه رأى ظبياً واحداً على الأقل ، وأن الحيوان قد اقترب منه للغاية .. ومع ذلك فليس من بينهم واحد صادفه حظ طيب فى الصيد ! . إلا أنهم سرعان ما كانوا ينسون إخفاقهم حينما نجلس معاً جميعاً لنأكل وجبة لذيذة من اللحم المشوى الذى لم يصيدوه.

وفى أحد شهور الصيف كان لدى فى محجر السراخس حصان كنت أطلق عليه اسم بلاك بيوتى (الجمال الأسود) ، وذلك لأننى كنت قد فرغت لتوى حينذاك من قراءة القصة الشهيرة عن الحصان الذى يحمل هذا الاسم . وكان حصانى يبدو شبيهاً بحصان القصة، إذ كان جسمه مغطى بشعر أسود لامع وغرة بيضاء [٤] على جبهته . وقد قضيت الكثير من أسعد أوقات حياتى على صهوة ذلك الحصان ، وقد اعتادت معلمتى أن تقوده وأنا أعتلى صهوته ، لكنها فى الأوقات التى كان فيها الحصان يبدو هادئاً وآمناً كانت تلقى بالحبل وتتركنى أقوده دون تدخل منها ، وعندئذ كان يذهب حيثما شاء وقد يتوقف أحياناً ليأكل

(٤) **الغرة : مساحة بيضاء فى جبهة بعض الخيول ، وهى من السمات المحببة فى مظهر الحصان .**

بعض الأعشاب أو أوراق الشجر .

وفى أوقات الصباح حين لاأكون مهتمة بالركوب ، كنت أشرع أنا ومعلمتى بعد الإفطار فى السير إلى الغابات لنتجول هنا وهناك دون أن نلتزم بالسير فى طريق معين سوى الممرات التى كانت الأبقار والخيول تصنعها بين الأعشاب والنباتات ، وفى بعض الأماكن كانت تكثر نباتات الكروم والشجيرات إلى حد أننا كنا لانستطيع السير خلالها ، بل نلتف حولها .. وكنا دائماً نعود إلى الكوخ وأيدينا مليئة بكل أنواع الأزهار والسراخس البرية الجميلة .

وفى بعض الأحيان كنت أذهب مع أختى الصغيرة «ملْدْريد» وأبناء عمومتى الصغار لجمع الفاكهة البرية ، والغريب أننى لم أكن آكل تلك الفاكهة ، بل كنت أشارك فى هذا العمل بدافع من حبى لرائحتها واستمتاعى بالبحث عنها بين الأوراق والأعشاب وكنا أيضاً نبحث عن الجوز (عين الجمل) ، واعتدت على معاونة الأطفال فى كسر قشوره ليتسنى لهم الاستمتاع بأكل ثماره الحلوة الكبيرة .

وكان هناك فى سفح الجبل خط للسكك الحديدية ، مما جعل الأطفال يولعون بمشاهدة القطارات وهى تروح وتجىء .. وفى بعض الأحيان كانت القطارات تطلق صفيراً عاليا يجعل كل أفراد

الأسرة يهرعون إلى الشرفة الأمامية ، وكانت شقيقتى مِلْدْريد تقول لى فى بعض الأحيان : إن بقرةً – أو حصاناً – قد صدمها القطار وكان يبعد عنا بحوالى كيلو متر ونصف جسر (كوبرى) للسكك الحديدية يمتد عبر واد ضيق عميق ، وكان من الصعب للغاية أن يسير عليه أحد لأن الألواح المكونة له كانت متباعدة عن بعضها كثيراً ، كما كانت ضيقة للغاية لدرجة أن السائر عليها يشعر بأنه يسير فوق سكاكين . ولم أحاول أبداً أن أعبر هذا الجسر حتى جاء يوم اضطررنا فيه للقيام بمغامرة حقيقية ، وتفاصيل ذلك أننا – أنا وملدريد والآنسة سوليڤان– كنا نسير فى الغابات فإذا بنا نضل طريقنا .. ومكثنا نضرب فى أرض الغابة هنا وهناك طوال عدة ساعات دون أن نجد لنا أى منفذ ، وفجأة صاحت ملدريد «ها هو جسر السكك الحديدية هناك !» ، ولاشك فى أننا كنا نفضل السير فى أى طريق آخر إلا طريق الجسر لولا أن الوقت كان متأخراً والظلام آخذ فى الزحف بسرعة ، مما جعلنا نختار طريق الجسر لأنه طريق مختصر يوصلنا إلى المنزل مباشرة . ورحت أتحسس القضبان بأصابعى دون أن أشعر بالخوف ، ومضيت أتقدم بسرعة طيبة إلى أن سمعنا فجأة ضوضاء خافتة تصدر من على مسافة بعيدة ، وصاحت ملدريد «إننى أرى القطار» .. وكان من الممكن فى ذلك الوقت أن يدهمنا القطار خلال دقيقة واحدة ، لولا أننا سارعنا بالهبوط على الأعمدة الخشبية إلى أسفل الجسر

ووقفنا على دعامته السفلية التى كانت القضبان تستند إليها ، والأمر المفزع أننى شعرت بالبخار الساخن المنبثق من القاطرة يلفح وجهى بينما القطار يمر فوق رؤوسنا، وقد جعلنا الدخان والرماد لانستطيع التنفس ونكاد نختنق ! . وضاعف من مشاعر فزعنا اهتزاز الجسر بشدة أثناء مرور القطار حتى خيل لى أننا جميعاً سوف نسقط فى الوادى وترتطم رؤوسنا بالصخور ، لكن ما أن مر القطار حتى عدنا نتسلق صاعدين لأعلى الجسر .. وكان ذلك عملاً شاقاً ، لكننا أديناه بنجاح . وحينما وصلنا سالمين إلى الكوخ بعد حلول الظلام وجدناه خالياً من كل من فيه .. فالأسرة بجميع أفرادها قد انطلقت للبحث عنا فى كل أرجاء المنطقة !

بعد زيارتى الأولى لبوسطن كنت أقضى كل شتاء فى الشمال، وقد ذهبت ذات مرة لزيارة قرية فى إقليم «نيو إنجلند» الذى كانت بحيراته متجمدة فى ذلك الوقت وحقوله الشاسعة مغطاة بالثلوج . وقد أدهشنى أن أجد كل الأوراق قد سقطت من على الأشجار والشجيرات ، وأجد الطيور قد هاجرت بعيداً تاركة أعشاشها الخاوية المليئة بالثلج . وفى ذلك الوقت كان الجو يبقى على حاله من شدة البرد حتى حينما تسطع الشمس ، وكانت المروج والأحراش المليئة بالأعشاب والشجيرات تتحول عادة إلى غابة من الجليد .

وذات يوم أخبرتنى الآنسة سوليفان أن عاصفة ثلجية فى طريقها إلينا ، ومن ثم هرعنا إلى خارج البيت لنرى ونشعر بأولى رقائق الثلج وهى تهبط على الأرض ، وظل الثلج على مر الساعات يتساقط فى سكون وخفة ، حتى أصبح الإقليم أكثر استواءً . وكان الثلج لايزال يتساقط حينما خيم الليل ، وأخبرتنى معلمتى أن كل الطرق قد اختفت ، وأن العالم بأسره بدا كما لو كان حقلاً واحداً مغطى بالثلج وبدت الأشجار كما لو كانت مرشوقة فيه .

وفى المساء أخذت تهب ريح قوية ، فجلسنا حول المدفأة ومضينا نروى القصص ، وغلبنا الشعور بالسعادة إلى حد جعلنا ننسى أننا نمت لهذا العالم بصلة . وبعد ذلك اشتد هبوب الريح كثيراً إلى حد جعل الكوخ يهتز بشدة ، إلى حد شعرت معه بفروع الأشجار وهى تضرب النوافذ بعنف .

وفى اليوم الثالث من هبوب العاصفة الثلجية توقف هطول الثلج ، ونفذت أشعة الشمس من خلال السحب لتسطع على سهل أبيض شاسع .. وراح الناس يحفرون دروباً ضيقة خلال الثلج ، أما أنا فقد ارتديت معطفى وخرجت ، وكان الهواء بارداً إلى حد جعل لسعة البرد تسفع الوجوه . وقد نجحنا فى الوصول إلى بعض أشجار الصنوبر النامية خارج حقل يقع بالقرب من المنزل ، وبدت

الأشجار ساكنة ومكسوة برداء أبيض من الثلج ، وخلا الجو من عبقه المعتاد برائحة الصنوبر . وكنت حين أتحسس الأشجار أشعر بندف الثلج وهى تتساقط من عليها وتتناثر فى الهواء ، كما كان انعكاس ضوء الشمس على الثلج وهاجًا إلى حد كنت معه أرى وميض البياض الناصع (٥) .

وبمرور الأيام أذابت الشمس جزءاً من الثلج ، لكنه قبل أن يذوب تماماً حلت بنا عاصفة جليدية أخرى .. إذ لم أكد أشعر بالأرض ثابتة تحت قدمى مرة واحدة طوال ذلك الشتاء . وأحيانا كانت الأشجار تفقد غطاءها الجليدى هذا ، أما البحيرة فقد ظلت على حالتها من التجمد والصلابة .

وإبان ذلك الشتاء كانت مسّلاتنا الوحيدة التزلج على المنحدرات الجليدية، وكنا نفعل ذلك على السواحل المنحدرة للبحيرات ، حيث كان أحد الأولاد يقوم بدفع زلاجتنا بيده عند أعلى المنحدر فتنطلق بنا بعيداً فى اتجاه أسفل التل وتعبر سطح البحيرة المتجمدة .. آه ما أروع ذلك ، لقد كنت أحبه حباً جماً ! إذ كنت أشعر حين تنطلق الزلاجة كأن السلاسل التى تقيدنى إلى الأرض قد كُسِرَتْ وأننى صرت حرة كالنسيم !

(٥) فى هذه المرة لم تكن الرؤية مجازية ، بل كانت هيلين كيلر ترى فعلاً بياض الثلج الناصع الوهاج عن طريق بقية ضئيلة من النظر . ويجب أن نتذكر أن باستطاعتنا رؤية الضوء الساطع حتى ونحن نغمض أعيننا !

الفصل السادس

فى شتاء عام ١٨٩٠ تعلمت الكلام ، وحققت بذلك الأمنية التى كنت أتوق دومًا إلى تحقيقها . وقد لازمتنى حينذاك عادة إصدار بعض الضوضاء وأنا أضع إحدى يدى على حنجرتى بينما اليد الأخرى تتحسس حركة شفتى . وكان أى شئ من شأنه إحداث الضوضاء كفيلاً بإسعادى ، فكنت مثلاً أحب أن أشعر بخرخرة القطة (١) ونباح الكلب ، وأحرص على إبقاء يدى على حنجرة من يقوم بالحديث. وكنت قبل أن أفقد بصرى وسمعى قد بدأت فى تعلم الكلام ، لكنى بعد أن أصابنى المرض توقفت عن الحديث لأنه لم يكن بوسعى أن أسمع ما يقوله الآخرون . وقد اعتدت وقتها على البقاء بين ذراعى أمى طوال اليوم واضعة يدىَّ على وجهها لأن شعورى بحركات شفتيها كان يسعدنى ويسلينى . والغريب أنى كنت أحرك شفتى أيضاً بالرغم من نسيانى التام فى ذلك الوقت ما هو الكلام ؟! . ويذكر أصدقائى أننى كنت أضحك وأبكى بصورة طبيعية ، وأننى ظللت لبعض الوقت أصدر الكثير من الأصوات وأنطق بعض الكلمات حتى لو لم أكن حينذاك أعرف ماذا تعنى !

(١) صوت خلاف المواء تصدره القطة ، وهو يشبه غطيط النائم .

لكن أهم مافى ذلك الأمر أنى بقيت بالفعل أذكر معنى كلمة واحدة هى **Water** (ماء) ، إلا أن طريقة نطقى لهذه الكلمة صارت – فى الوقت الذى جاءت فيه الآنسة سوليڤان لتعلمنى – عسيرة الفهم على الآخرين ، وقد توقفت عن استخدامها حينما تعلمت تهجى الكلمات بأصابعى .

عرفت منذ وقت بعيد أن الناس من حولى يكلمون بعضهم البعض .. وأنا حتى من قبل أن أعرف أنه من الممكن للطفل الأصم أن يتعلم الكلام ، لم أكن قانعة بالاكتفاء باستخدام أبجدية الأيدى ، فالأشخاص الذين يعتمدون كلية على تلك الأبجدية يشعرون عادة بالنقص والضيق لعدم تمكنهم من التواصل مع الآخرين إلا بهذه الطريقة . وكانت تنتابنى دائمًا الرغبة فى الحديث إلى الغير ، وكنت أحاول استخدام صوتى وشفتى حتى برغم أن الآخرين كانوا يثبطوننى خوفاً من ألا تسفر المحاولة إلا عن شعورى بخيبة الأمل . لكننى سمعت ولحسن الحظ – عن طريق مصادفة سعيدة – بأخبار فتاة أخرى كفيفة صماء تعلمت الكلام.. الأمر الذى أحيا فىَّ الأمل أكثر وأكثر .

وفى عام ١٨٩٠ جاءت معلمة الكلام «مسز لامسون» لترانى بمجرد عودتها من زيارة قامت بها للنرويج والسويد ، ومضت تحدثنى عن الفتاة الكفيفة الصماء التى علمتها الكلام فى تلك

البلاد . وأثار فىَّ حديثها عن تلك الفتاة المزيد والمزيد من الشوق إلى تعلم الكلام ، وحزمت أمرى على تحقيق هذا الهدف العزيز المنال وقررت ألا أتقاعس دونه . ولم أقتنع حتى صحبتنى الآنسة سوليڤان لاستشارة الآنسة «سارة فوللر» وطلب العون منها ، وكانت تلك السيدة معلمة للكلام ومديرة مدرسة «هورس مان» للصم فى مدينة بوسطن بولاية ماساتشوستس . وقد عَرَضَتْ هذه السيدة الرائعة خفيفة الظل أن تعلمنى بنفسها ، وشَرَعَتْ بالفعل فى تعلم الكلام على يديها يوم ٢٦ مارس عام ١٨٩٠ .

تتلخص الطريقة التى اتبعتها الآنسة فوللر فى تعليمى الكلام فيما يلى : كانت تمرر يدى بخفة على وجهها وتجعلنى أتحسس وضع لسانها وشفتيها كلما أصدرت صوتاً . ورحت أحاول بكل شوق أن أفعل كل شئ بنفس الطريقة التى تفعله بها ، وفى ساعة واحدة تعلمت ستة أصوات هى م ،پ ، أ ، س ، ت ، ى . وبلغ عدد الدروس التى تلقيتها على يد الآنسة فوللر أحد عشر درساً ، ولن أنسى ماحييت الدهشة والسرور اللتين شعرت بهما حينما نطقت بأول جملة كاملة ومتصلة «الجو دافئ **It is warm**» .. لم تكن كلماتى واضحة للغاية أو سهلة الفهم ، لكنها كانت كلاماً بشرياً على أية حال !

لايوجد طفل أصم يمكنه أن ينسى السعادة التى يشعر بها أو

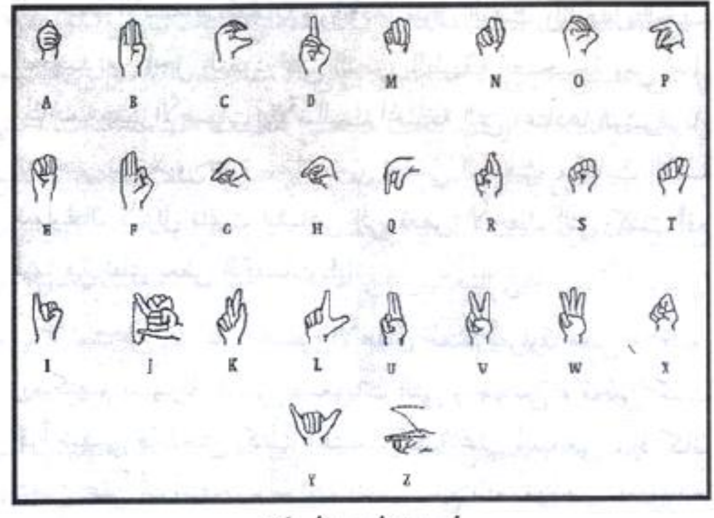
ينسى إحساسه باكتشاف عالم جديد حينما ينطق بكلمته الأولى ، وأعتقد أنه لا أحد سوى المصاب بالصمم يمكنه أن يتفهم حقيقة وأبعاد الشغف الشديد الذى كان يدفعنى للتحدث إلى كل شئ : إلى لعبى ، إلى الأحجار ، إلى الأشجار ، بل وإلى الطيور والحيوانات ! . وكم كانت فرحتى عظيمة حينما كانت أختى ملدريد تلبى ندائى حين أناديها ، أو حين كانت الكلاب تطيع أمراً أصدرته إليها . لقد أحسست بأننى حرة بدرجة أكبر وأننى قادرة أكثر على التعبير عن أفكارى حينما تمكنت أخيراً من التعبير الصوتى بالحديث إلى جانب مقدرتى فى التعبير الحركى بأبجدية الأيدى .

ومع ذلك يتعين عليك يا عزيزى القارىء ألا تتصور أننى تمكنت حقًا من الكلام خلال فترة زمنية قصيرة ، ففى البداية عرفت فقط مبادئ الحديث ، وكان بمقدور كل من الآنسة فوللر والآنسة سوليڤان أن تفهما ما أعنيه ، أما سائر الناس فلم يكن بمقدورهم أن يفهموا واحداً بالمائة من الكلمات التى أتحدث بها . وبعد أن فرغت من تلقى دروس الآنسة فوللر كنت ماأزال بحاجة إلى قدر كبير من العون ، ولولا معلومات الآنسة سوليڤان وحبها وسعة صدرها وجهودها المتواصلة لما كان بوسعى التقدم وتحقيق النجاح فى تعلم الكلام بصورة طبيعية مثل سائر البشر . ومكثت

لفترة طويلة أتدرب ليلاً ونهاراً على الحديث قبل أن يتمكن حتى أقرب أصدقائى من فهم ما أقوله ، ومن جهة أخرى كنت بحاجة إلى عون الآنسة سوليڤان وإرشادها طوال الوقت وأنا أبذل الجهد الجهيد من أجل التعود على النطق بالطريقة الصحيحة ومن أجل المناغمة بين الأصوات بالأساليب المختلفة التى اعتادها البشر . بل إنه حتى بعد مرور عدة سنوات من تعلمى الحديث ، كانت الآنسة سوليڤان لاتزال تلفت انتباهى إلى بعض الأخطاء التى كنت أقع فيها فى نطق بعض الكلمات !

لاشك فى أن كل معلمى الأطفال الصم يعرفون معنى ما قلته، ويمكنهم بسهولة تفهم الصعوبات التى واجهتنى ، فحين كنت أقرأ شفتى معلمتى كنت أعتمد كلية على أصابعى ، إذ كان يتعين علىَّ أن أستخدم حاسة اللمس فى التعرف على اهتزازات الحنجرة، وحركات الفم ، وتعبير قسمات الوجه . وكنت فى أغلب الأحوال أخطئ فى إحساسى ، وكان يتعين علىَّ أن أكرر نفس الكلمات أو الجمل على مدى عدة ساعات حتى أتوصل إلى إدراك الصوت الصحيح والإحساس به حين أنطق به . وقد تدربت وتدربت وتدربت . وفى بعض الأحيان كنت أنهار تحت وطأة الشعور بالإرهاق والإحباط لكننى سرعان ما كنت أستعيد شجاعتى وأتشبث بطموحى ، خصوصًا حين يطوف بخيالى كم

ستكون أسرتى فخورة بإنجازاتى .. ومن ثم كنت أستمد عزماً جديداً وأمضى بقوة فى محاولاتى وأواصل بذل الجهد .

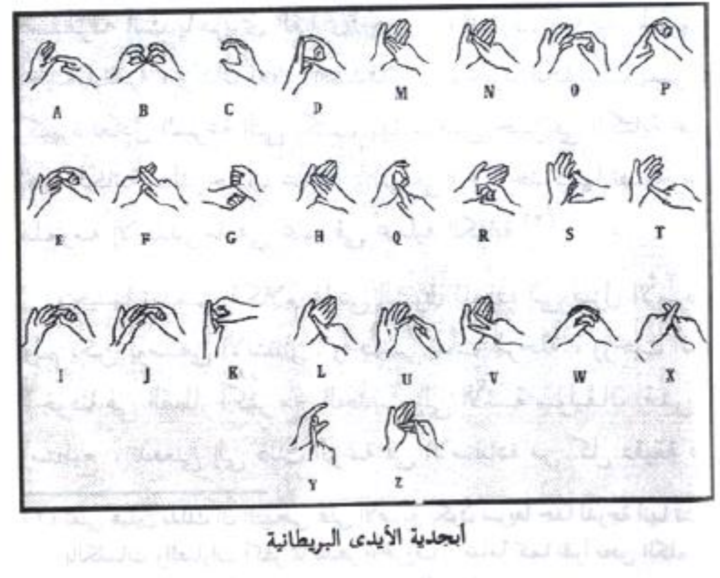


أبجدية الأيدى الأمريكية

أوضاع وحركات تتخذها الأصابع وقبضة اليد بغرض تمثيل حروف الهجاء من أجل الصم البكم . وقد ظلت هذه الأبجدية – ولسنوات طوال – وسيلة هيلين كيلر الوحيدة فى الاتصال بالناس من حولها والتواصل معهم !

اعتدت فى تلك الفترة أن أقول لنفسى «سوف تفهم شقيقتى الصغيرة ما أقوله لها» ، وكانت تلك الفكرة الملحة أقوى من كل الصعوبات التى تعترضنى ، وكنت أقول لنفسى دائماً فى سرور «الآن يمكننى الحديث كبقية البشر» .. كما كان الشعور بالحزن

والإحباط يتبدد كلما فكرت فى السرور الذى يمكن أن يجلبه إلى قلبى الحديث إلى أمى وقراءة إجاباتها من على شفتيها . وقد أدهشنى أن أجد أنه من الأسهل كثيراً أن أتحدث بما يدور فى خاطرى عن أن أتهجاه بأصابعى . ومن ثم توقفت عن استخدام أبجدية الأيدى كوسيلة للحديث إلى الآخرين ، لكن الآنسة سوليفان وبعض أصدقائى واصلوا استخدامها فى حديثهم إلىَّ لأن أبجدية الأيدى كانت الوسيلة الأسهل والأسرع من قراءة الشفاه فى توصيل ما يرغبون قوله لى .



أبجدية الأيدى البريطانية

لعله من الأفضل أن أشرح كيفية استخدامنا لأبجدية الأيدى ، ذلك الأمر الذى يحير أولئك الذين لايعرفوننا عن قرب ، فالشخص الذى يقرأ لى أو يتحدث إلىّ يتهجى الكلمات بيده عن طريق تلك الأبجدية اليدوية التى يستخدمها عادة فاقدو السمع ، وكنت أضع يدى على يد من يتحدث إلىّ فى خفة ويدى مرتخية لكى يستطيع المتحدث تحريكها كيفما شاء . ومن المعروف أن الوضع الذى تتخذه اليد يسهل الشعور به بنفس القدر الذى تسهل به رؤيته ، ولا يستغرق منى الشعور بالحرف الواحد وقتاً أكثر من القدر الذى تستغرقه أنت ياعزيزى القارىء فى رؤية الحرف الواحد المطبوع حينما تقرأ ، وكان بعض أصدقائى يتهجون الكلمات بسرعة كبيرة تعادل السرعة التى يكتب بها شخص خبير فى الكتابة على الآلة الكاتبة ، لدرجة أن عملية «التهجى» فى حد ذاتها تصبح غير ملموسة إلا بقدر ما هى عليه فى عملية الكتابة [٢] .

وحينما تعلمت الكلام غلبنى الشوق للعودة إلى منزل الأسرة ، ولم يكن بوسعى الانتظار . وأخيراً بدأت الرحلة ، ورحت أثناء وجودنا فى القطار أُكْثِر من الحديث إلى الآنسة سوليڤان بقدر ما أستطيع ، تدفعنى إلى ذلك الرغبة فى الاستفادة من كل دقيقة فى

(٢) تعنى هيلين بذلك أن التهجى على الأصابع يكون سريعاً جداً لدرجة أنها تشعر بالكلمات والعبارات أكثر مما تشعر بالحروف .. تماماً كما نقرأ نحن الكلمات فندركها بسرعة ولانكاد ننتبه إلى الحروف المكونة لها .

تحسين مقدرتى على الكلام قبل أن ألتقى بأسرتى . وأخيراً وقبل أن أعلم بذلك توقف القطار فى محطة توسكومبيا ، وهناك وجدنا كل أسرتى محتشدة للترحيب بنا .. والآن تدمع عيناى حينما أتذكر كيف احتضنتنى أمى فى صمت والسرور يملأ جوانحها وهى تستمع لكل كلمة أقولها ، وكيف أمسكت الصغيرة ملدريد بيدى وراحت تقبلها وهى مبتهجة ، وكيف عبر والدى عن فرحه وفخره بالصمت والهدوء التام .. لقد كانت لحظة خالدة فى حياتى !

****

الفصل السابع

في شتاء عام ١٨٩٢ وقع لى – وأنا لاأزال بعد طفلة صغيرة – أمر حزين كدر صفو حياتى وبدد السرور الذى كان قلبى عامراً به. وقد جعلنى ذلك الأمر ولفترة طويلة للغاية أعيش فى صحبة الشك والقلق والخوف ، لدرجة أن الكتب ذاتها فقدت سحرها بالنسبة لى .. وحتى اليوم مازالت ذكرى تلك الأيام تجعلنى أشعر بالتعاسة! وأصل تلك الأزمة أننى كتبت ذات مرة قصة صغيرة بعنوان «ملك الصقيع» وأرسلتها إلى «المستر أناجنوس» مدير مؤسسة بركنز للمكفوفين ، ومن هذا الحدث البسيط انبثقت كل المتاعب التى عصفت بحياتى بكل عنف !

كتبت تلك القصة وأنا لا أزال فى بيتنا فى الخريف التالى لذلك الخريف الذى تعلمت فيه الكلام ، وكنا فى ذلك الوقت قد مكثنا فى محجر السراخس لفترة أطول من المعتاد . وأثناء وجودنا هناك راحت الآنسة سوليڤان تصف لى روعة وجمال أوراق الخريف ، ولاشك فى أن وصفها قد جعلنى أتذكر أحداث قصة قد قاموا بقراءتها لى قبل ذلك بسنوات ، دون أن أكون واعية بذكرى تلك القصة . ومن ثم فقد جلست ورحت أكتب فى ولع وحماس قصة تدور حول ما وصفته لى الآنسة سوليڤان ،

واعتقدت وقتها أننى لاأكتب سوى أفكارى الخاصة ، وكانت تلك الأفكار تتدفق وراء بعضها فى يسر وسلاسة مما جعلنى أشعر بسرور بالغ وأنا أكتب ذلك الموضوع . وكانت الكلمات تجئ إلى ذهنى بسرعة وسهولة ، وكنت أفكر فى جملة فى إثر الأخرى وأسارع بكتابتها بطريقة برايل .

وحينما اكتملت القصة ، قرأتها لمعلمتى ، ومازلت حتى يومنا هذا أتذكر ذلك السرور الذى غمر مشاعرى وأنا أقرأ أفضل ما كتبت من فقرات، وأتذكر أيضًا كيف كنت لا أقوى على الصبر كلما قاطعتنى معلمتى لتصحح لى نطق إحدى الكلمات . وأثناء تناولنا لطعام الغداء راحت الآنسة سوليڤان تقرأ القصة لكل أفراد الأسرة الذين أدهشهم تمكنى من الكتابة بهذه البراعة ، وقد سألنى أحدهم عما إذا كنت قد قرأتها فى كتاب .. فأدهشنى هذا السؤال كثيراً ، لكونى لا أذكر أن أحداً قرأها لى ، وقد أجبته «لا لا إنها قصتى وقد كتبتها خصيصًا من أجل صديقى المستر أناجنوس» .

وفى نهاية المطاف أعددت نسخًا من القصة وأرسلتها للمستر أناجنوس بمناسبة عيد ميلاده . وقد غيرت العنوان من «أوراق الخريف» إلى «ملك الصقيع» ، وحملت القصة القصيرة إلى مكتب البريد بنفسى وأنا أسعر بخفة كما لو كنت أسير على

الهواء ، ولم أكن فى ذلك الوقت أعرف مقدار التعاسة التى ستصيبنى مستقبلاً من وراء هدية عيد الميلاد تلك .

شعر المستر أناجنوس بالسرور حينما تلقى قصة «ملك الصقيع» ، وعمد إلى نشرها فى أحد التقارير التى تصدرها مؤسسة بركنز ، وكان هذا سببًا فى بلوغى قمة السعادة . لكن بمجرد دعوتى إلى بوسطن ، اكتشف البعض أن قصة أخرى مماثلة لقصة «ملك الصقيع» كانت قد نشرت قبل مولدى وأن مؤلفتها الآنسة «مارجريت ث. كانبى» وضعت لها عنوانًا هو «جنيات الصقيع» ، وأنها ظهرت ضمن كتاب بعنوان «بِردى وأصدقاؤه» . وكانت القصتان متشابهتين بدرجة كبيرة من حيث الأفكار وأسلوب التعبير ، إلى حد أنه كان من الواضح أن أحدًا قرأ لى قصة الآنسة كانبى ، وأن قصتى كانت مجرد اقتباس ! وكان من الصعب إفهامى بهذا الأمر ، لكننى حينما فهمته فى النهاية شعرت بالدهشة والحزن . ولايوجد طفل آخر تجرع من كأس المرارة بالقدر الذى تجرعت منه ، لأن الناس اعتقدوا أننى غير أمينة ؛ كما تشككوا فى معلمتى وفى أناس آخرين ممن كانوا على صلة بى وممن كنت أحبهم حبًا جمًا .. ولم يكن باستطاعتى أن أفهم كيف يمكن أن يحدث شئ كهذا ، وحاولت مرارًا وتكرارًا أن أتذكر أى شئ يمكن أن يكون أحدهم قد قرأه لى عن الصقيع قبل أن أكتب قصة «ملك الصقيع» هذه ، لكننى لم أتذكر قط

أى شئ آخر فيما عدا الإشارات العابرة إلى چاك فروست (چاك الصقيع) [1] ، وكذلك قصيدة للأطفال أدرك جيدًا أنى لم أستخدمها فى قصتى .

وبدا فى أول الأمر أن المستر أناجنوس يصدقنى بالرغم من المتاعب الكبيرة التى سببها له نشر القصة ، وكان طيبًا معى ورفيقًا بى بدرجة غير مألوفة ، لكنه ظل مكتئبًا لبعض الوقت ، ولكى أدخل السرور على قلبه حاولت ألا أبدو تعيسة يائسة وأن أجعل من نفسى شخصًا لطيفًا بقدر الإمكان حتى يتسنى لى المشاركة فى برنامج كنا نعده فى المدرسة بمناسبة «عيد ميلاد چورج واشنطن [2] » . وفى الليلة السابقة للبرنامج سألتنى إحدى المدرسات سؤالاً حول قصة «ملك الصقيع» ، فقلت لها : إن الآنسة سوليڤان كانت قد تحدثت إلىَّ عن «چاك الصقيع»

(١) تسمية «چاك فروست Jack Frost » عبارة عن تشخيص للصقيع Frost (أو الطقس السئ بوجه عام) على هيئة إنسان .. على نحو ما يقول بعضنا مثلاً «الحاج شتاء» على فصل الشتاء .

(٢) چورج واشنطن George Washington : هو زعيم الثورة الأمريكية ضد الحكم البريطانى وقائد الجيش الذى حرر أمريكا من سيطرة جيش الاحتلال البريطانى ، وهو أيضًا أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية التى تأسست عقب التحرر ، وباسمه سميت كل من العاصمة الأمريكية «واشنطن» وولاية «واشنطن» . وقد عاش بين عامى ١٧٣٢ - ١٧٩٩ وحكم الولايات المتحدة لفترتين بين عامى ١٧٨٩ - ١٧٩٧ ، ويُعَدُّ يوم ميلاده (٢٢ فبراير) أجازة رسمية ومناسبة قومية فى الولايات المتحدة .

وأعماله المدهشة، ويبدو أن شيئًا مما قلته قد جعلها تعتقد أننى أعترف لها بتذكرى لقصة الآنسة كانبى «جنيات الصقيع» .. وإذا بتلك المدرسة تذهب إلى المستر أناجنوس وتخبره بما تخيلته، برغم أنى أخبرتها بأنها مخطئة فى ذلك الاعتقاد .

يا للعجب ، إننى أتذكر اليوم التالى لذلك اليوم – وهو يوم عيد ميلاد جورج واشنطن – ففى إطار الحفل الذى كان الطلبة المكفوفين سيشاركون فيه على المسرح كنت أمثل الخريف والحصاد ، مما جعلنى أرتدى ملابس جميلة فضفاضة ، وأضع على شعرى إكليلاً من أوراق الخريف اللامعة ، وأمسك فى يدى وأثبت فى قدمى بعض الفاكهة ونباتات الحبوب . وكان الحفل سارًا بهيجًا ، لكن شعورًا خفيًا داخلى كان يؤكد لى أن شيئًا فظيعًا يوشك على الحدوث ، الأمر الذى جعلنى مغمومة وخائفة !

قبل ذلك كان المستر أناجنوس يحترمنى ويعاملنى بقدر كبير من الطيبة ، لكنه الآن بعد ما قالته تلك المدرسة غير الأمينة صار يعتقد – أو على الأقل يشك – أننى والآنسة سوليفان قد سرقنا أفكاراً وعبارات شخص آخر ، وأننا أرسلنا له القصة لنجعله يكن لى الإعجاب . وقد طلبوا منى أن أَمْثل أمام مجلس تحقيق يتكون من الأساتذة وبعض التلاميذ الآخرين الملتحقين بمؤسسة بركنز ، وطلبوا من الآنسة سوليفان أن تتركنى وحدى . وفى مجلس

التحقيق راحوا يسألوننى أسئلة كثيرة شعرت منها أنهم يعتزمون أن ينتزعوا منى اعترافاً بأن أحداً قد قرأ لى من قبل قصة «جنيات الصقيع» ، وكان كل سؤال من أسئلتهم يشعرنى بريبتهم وشكوكهم الظالمة . وغلبنى الإحساس أيضًا بأن صديقى المستر أناجنوس كان ينظر إلىّ ويقول فى صمت : «كيف تجرؤين على هذه الفعلة الدنيئة ؟» وكان قلبى يدق بسرعة ولم يكن باستطاعتى الكلام ، وأدركت أنهم يتهموننى بشئ لم أفعله ، ولم تكن ثقتى التامة بأننى لم أفعل ذلك لتقلل شيئًا من معاناتى ، وعندما سمحوا لى بمغادرة الغرفة آخر الأمر ، شعرت تقريباً كأننى أسير وأنا نائمة ولم أنتبه إلى الآنسة سوليفان وهى تحاول تهدئة مشاعرى ، وانتبهت بالكاد إلى الكلمات الرقيقة التى صدرت من أصدقائى الذين قالوا : إنى فتاة شجاعة وأنهم فخورين بى !

وحينما رقدت فى فراشى فى تلك الليلة انخرطت فى البكاء ، وشعرت ببرودة شديدة تصورت معها أننى سأموت قبل قدوم الصباح .. وكنت فى الواقع أتمنى ذلك . وأعتقد أن هذه التجربة الفظيعة لو كانت حدثت لى وأنا فى سن أكبر لكانت قد حطمت نفسى وروحى تمامًا ، لكن لما كنت فى ذلك الوقت فى الثانية عشرة من عمرى فقط ، فقد كان الزمن كفيلاً بتبديد القدر الأكبر من أحزانى ومعه كل ماتجرعته من مرارة تلك الأيام التعسة.

لم تكن الآنسة سوليفان قد سمعت قط بقصة «جنيات الصقيع» أو بالكتاب الذى كانت منشورة به . وقد حاولت معلمتى بمعاونة الدكتور الكسندر «جراهام بل» أن تكشف لغز الشخص الذى يمكن أن يكون قد قرأها لى ، واكتشف فى نهاية المطاف أن مسز هوبكنز كان لديها نسخة من كتاب الآنسة كانبى فى عام ١٨٨٨ ، وهو العام نفسه الذى قضينا فيه الصيف معها فى بروستر بمنطقة كيب كود . وقد أبلغتنى مسز هوبكنز بعد ذلك أنها لاتستطيع أن تجد نسختها من ذلك الكتاب ، وأنها كانت تعكف على تسليتى بقراءة مجموعة من الكتب فى ذات الوقت من ذلك الصيف الذى ذهبت فيه الآنسة سوليفان لقضاء أجازتها بعيداً . ولم تتذكر المسز هوبكنز أنها قرأت لى قصة «جنيات الصقيع» بالذات ، لكنها كانت متأكدة من أن كتاب «بِرْدى وأصدقاؤه» كان من بين الكتب التى قرأتها لى . كما قالت أيضاً :إنها لاتستطيع العثور على الكتاب لأنها حين باعت منزلها وهبت الكثير من كتب الأطفال للمحتاجين .

وفى ذلك الوقت لم يكن للقصص سوى القليل من الأهمية أو لا أهمية لها على الإطلاق بالنسبة لى ، لكن عملية هجاء الكلمات الغريبة فى حد ذاتها كانت كافية لتسلية طفلة صغيرة ليس بوسعها فعل أى شئ من أجل تسلية نفسها . وبالرغم من كونى لا أتذكر أى شئ يتعلق بقراءة القصص ، فإننى أتذكر ذلك

الجهد الكبير الذى كنت أبذله فى حفظ الكلمات لكى يتسنى لى أن أسأل معلمتى شرح معانيها حينما تعود . وهناك شئ واحد مؤكد : أن اللغة كانت تنطبع فى ذهنى ، برغم أن أحداً لم ينتبه إلى ذلك لفترة طويلة بما فى ذلك أنا نفسى .

وأعتقد أننى لم أتحدث إلى الآنسة سوليفان – حين عادت فى ذلك الصيف – عن قصة «جنيات الصقيع» ، لأن من المحتمل أنها بدأت على الفور تقرأ لى كتاباً آخر أثار اهتمامى بشدة . وخلاصة القول أن قصة الآنسة كانبى قد قرئت لى فعلاً ، وأنها بعد نسيانى لها بفترة طويلة تَوَارَدَتْ إلى ذهنى بصورة طبيعية اعتقدت معها أنها قصتى أنا . فهذا هو التفسير المعقول الذى توصلت إليه بعد دراسة المسألة من جميع جوانبها مع أصدقائى المخلصين .

وقد تلقيت حينما كنت أعانى من تلك المحنة الكثير من رسائل الود والتعاطف ، والتشجيع من الأصدقاء ومن الغرباء الذين عرفوا بتلك القصة وتأثروا بها ، وقد حرص جميع أصدقائى المقربين الذين احترمتهم احتراما كبيراً على الاحتفاظ بصداقتى ماعدا واحدة سامحها الله . وقد كتبت لى الآنسة كانبى نفسها ذات يوم تقول «يومًا ما سوف تكتبين قصة عظيمة من بنات أفكارك ، وستكون تلك القصة عوناً للكثيرين وسبباً فى راحة نفوسهم» .

لكننى لم أفعل ذلك قط .. لم ألعب قط بالألفاظ مرة أخرى لمجرد الاستمتاع باللعب ، بل إنى بعد تلك المحنة المريرة كنت فى غاية التشكك وأخاف غالباً من أن يكون ما أكتبه ليس من إنشائى . وبلغت فى تفكيرى هذا حداً اعتقدت معه أنه إذا جاءت إلى الكلمات متدفقة فى سهولة ويسر فهذا دليل أكيد على كونها ليست من إنشائى ، وكنت ويا للأسف أتناساها وأعاود التفكير فى غيرها . وحتى الآن مازلت فى أغلب الأحوال لا أستطيع التأكد من الحدود الفاصلة بين أفكارى وأفكار الآخرين التى قرأتها فى الكتب ، وأعتقد أن السبب فى ذلك يرجع جزئيًا إلى أن الكثير من الأشياء والمعانى تأتى إلى من خلال عيون وآذان الآخرين .

وقد قرأت قصة «جنيات الصقيع» بعد فترة محنتى الكبرى ، وقرأت أيضًا بعض الخطابات التى كَتَبْتُها فى الفترة نفسها، فوجدت أننى استخدمت فى تلك الخطابات بعض أفكار الآنسة كانبى ، ففى رسالة بعثت بها إلى المستر أناجنوس بتاريخ ٢٩ سبتمبر عام ١٨٩١ وجدت كلمات وتعبيرات ومشاعر مماثلة لبعض ما يحتويه الكتاب . ولما كان ذلك هو الوقت الذى كتبت فيه قصة ملك الصقيع ، فإن هذه الرسالة توضح بجلاء أن ذهنى كان مليئًا بأفكار وتعبيرات وكلمات مصدرها تلك القصة ، فقد كتبت مثلاً أن الآنسة سوليڤان قالت عن أوراق الخريف الذهبية : «نعم ،

إنها رائعة بالقدر الكافى لإمتاع نفوسنا طيلة مايتبقى من هذا الصيف» وهذه الفكرة ذاتها موجودة فى قصة الآنسة كانبى ! .

وتلك العادة المتمثلة فى استيعاب ما يروق لى ثم إخراجه مرة أخرى على أنه من إنشائى تظهر فى الكثير من رسائلى المبكرة وفى محاولاتى الأولى للكتابة ، فمثلاً فى موضوع إنشاء كتبته عن المدن القديمة فى اليونان وإيطاليا ، أجدنى قد استعرت أوصافى البارعة من مصادر نسيتها ، وإن كنت قد أدخلت عليها بعض التعديلات . ولما كنت أعرف أن المستر أناجنوس كان لديه ولع كبير بالحضارتين الإغريقية والرومانية فقد جمعت من كل الكتب التى قرأتها أبياتًا من القصائد أو نصوصًا تاريخية اعتقدت أنها سوف تسره وبدا أن المستر أناجنوس قد أعجبه موضوع الإنشاء هذا بدرجة كبيرة ، وقد قال :إن الأفكار معبر عنها بما يشبه الأشعار .. وإن كنت لا أفهم كيف كان بوسعه الاعتقاد بأن طفلة صماء ومكفوفة عمرها أحد عشر عاماً يمكنها أن تبدع مثل هذه الأفكار! ومن ناحية أخرى فلا يمكننى الاعتقاد بأن موضوع الإنشاء الصغير هذا لاقيمة له على الإطلاق لمجرد أن أفكاره لم تنبع من داخلى ، فهذا الموضوع يبين أنه كان باستطاعتى أن أعبر عن تقديرى للأفكار الجميلة والربط المتناغم بينها فى لغة واضحة سهلة الفهم .

كانت موضوعات الإنشاء المبكرة تلك عبارة عن تدريبات لذهنى ، فقد كنت أتعلم صياغة الأفكار من الكلمات كما يتعلم كل الصغار ومن يفتقرون إلى الخبرة عن طريق التقليد والمحاكاة . وسواء انتبهت إلى ذلك أم لم أنتبه إليه فقد كان من عادتى أن أتذكر كل ما يعجبنى حين أقرؤه فى الكتب ، ثم أقوم بالتعبير عنه وصوغه بطريقتى الخاصة . وكما قال المؤلف الأسكتلندى «روبرت لويس ستيفنسون» :إن الكاتب الصغير يحاول أن ينسخ كل ما يبدو له جيداً ، وهو غالباً ما يغير رأيه كلية فيما يعتبره جيداً وحتى عظماء المؤلفين لايمكنهم أن يتعلموا كيف يستخدمون حصيلة الكلمات التى امتلأت بها عقولهم إلا بعد سنوات طويلة من هذا النوع من الممارسة .

وأخشى ألا أكون قد أتممت بعد هذه العملية ، فمن المؤكد أننى لا أستطيع دائمًا التمييز بين أفكارى الخاصة والأفكار التى قرأتها ، لأن ما أقرؤه يصبح لصيقاً بذهنى . ولهذا السبب فإن ما أكتبه شبيه للغاية بما كنت أحيكه فى أعوامى المبكرة . فحينما كنت أتعلم كنت أيضاً أحيك قطعًا من أنواع مختلفة من القماش وأوصلها ببعضها البعض ، وكانت بعض هذه القطع من نسيج حريرى ناعم وطرى ، إلا أن أغلبها كانت من أقمشة غليظة خشنة الملمس . وبنفس الطريقة كانت مواضيع الإنشاء التى كنت أكتبها تشتمل على أفكار بسيطة من بنات أفكارى موصولة بأفكار

وآراء أكثر روعة ولمعاناً من بنات أفكار المؤلفين البارعين الذين قرأت أعمالهم . ويبدو لى أن الصعوبة الكبرى فى الكتاب (أى التأليف) تتمثل فى جعل اللغة الفصحى تعبر عن أفكارنا ومشاعرنا المختلفة ، فمحاولة الكتابة تشبه إلى حد كبير محاولة تركيب أجزاء الصورة المكونة للغز «الصورة المقطعة[٣] » مع بعضها البعض .. فنحن يكون فى أذهاننا عادة نموذج نرغب فى تنفيذه بالكلمات ، لكن الكلمات قد لاتناسب الفراغات الموجودة ، وإذا كانت تناسبها فهى قد لاتطابق نموذج التصميم . لكننا نستمر فى المحاولة لمجرد علمنا بأن الآخرين حاولوا ونجحوا ، ولأننا لانرغب فى التسليم بالفشل .

وعلى أية حال فقد أفادتنى محنتى الكئيبة ، إذ جعلتنى أفكر فى المشكلات التى تعترض فن الإنشاء (أى فن الكتابة والتعبير) ، وكل مايؤسفنى أن تلك المحنة أفقدتنى واحداً من أعز أصدقائى هو المستر أناجنوس !

وبعد أن نشرت قصة حياتى فى إحدى المجلات كتب المستر أناجنوس رسالة قرر فيها أنه أثناء فترة المحنة التى تسببت فيها قصة

---

(٣) لغز الصورة المقطعة jigsaw puzzle : عبارة عن صورة من الورق المقوى أو الخشب أو البلاستيك مقسمة إلى أجزاء غير منتظمة الشكل ، بحيث أنه إذا تم التوفيق بين الأجزاء بالطريقة الصحيحة تكونت الصورة واتضحت معالمها .

«ملك الصقيع» كان مؤمنًا ببراءتى ، كما قال : إن المجلس الذى اشترك فى محاكمتى كان يتكون من ثمانية أشخاص ، أربعة منهم مكفوفين وأربعة مبصرين ، وأن أربعة من هؤلاء أصدروا قرارهم بأنه لابد من أن تكون قصة الآنسة كانبى قد قرئت لى ، بينما وقف الأربعة الآخرون فى صفى ، أما هو - أى المستر أناجنوس - فقد صوت معهم لصالحى .

ولم أكن أعلم بهذا الموقف ، أما الذى علمته كل العلم وعانيت منه كل المعاناة فهو أنى حين دخلت تلك الغرفة المنعقد فيها مجلس التحقيق - وهى الغرفة التى كان المستر أناجنوس فى الماضى يلعب معى فيها كثيراً -بدت لى كما لو كانت غرفة مليئة بالأعداء ، وشعرت أن كل شخص فيها يعتريه الشك فى حقيقة ما أقول . ولم أعلم قط بأسماء أعضاء المجلس الذى قام بمحاكمتى ، فهم لم يتحدثون معى ، كما إنى كنت مرتبكة للغاية وفزعة للغاية إلى حد لايمكننى معه أن ألقى عليهم بالأسئلة ! بل إننى فى واقع الأمر لم أكد حتى أفكر فيما كنت أقوله أو فيما كان يقال لى . ويبدو لى أن المستر أناجنوس ظل لمدة عامين مؤمناً ببراءتى وبراءة الآنسة سوليڤان ، ثم غير رأيه بعد ذلك، ولا أعلم السبب الغريب وراء هذا التغير !

رويت لأعزائى القراء كل ما سبق عن محنة «ملك الصقيع» لأنها كانت ذات تأثير كبير فى مجرى حياتى وفى مسار تعليمى . ولئلا يواجهنى البعض بأى قدر من سوء الفهم فقد ذكرت كل الحقائق التى أعرفها فيما يتعلق بتلك الأزمة ، دون أن أقصد من ذلك الدفاع عن نفسى أو لوم أى شخص آخر .. إنها الحقيقة التى ينبغى أن يعرفها أصدقائى القراء ، وأترك لهم الحكم على راجية أن يكونوا قضاة عادلين .

****

الفصل الثامن

قضيت الصيف والشتاء بعد محنة قصة «ملك الصقيع» مع أسرتى فى ولاية ألاباما ، وكنت سعيدة بالوجود فى منزلنا . وبعد عام من كتابتى لقصة «ملك الصقيع» بدأت فى كتابة قصة قصيرة عن حياتى لإحدى مجلات الأطفال، وقدتجشمت فى ذلك عناءً كبيراً ؛ إذكان يساورنى الكثير من القلق حول ما أكتب، وأحيانا كنت أقول لمعلمتى :«ربما اكتشف البعض أن هذه القصة أيضاً قد كتبها شخص آخر منذ زمن طويل» . وكان عمرى فى ذلك الوقت اثنى عشر عاماً ، وحين أتذكر الآن هذا الأمر أتذكر معه أن معلمتى مضت تشجعنى على الكتابة لتجعلنى أستعيد ثقتى بنفسى ، إذ لم أكن فى ذلك الوقت قد انتعشت بعد من تجربتى الحزينة فى العام السابق ، وكانت الآنسة سوليفان تدرك أننى إذا واصلت محاولاتى للكتابة فسوف يجعلنى هذا قادرة على السيطرة على أفكارى ومشاعرى .

وتتمثل أهم الأحداث التى وقعت لى فى عام١٨٩٣ فى السفر إلى واشنطن فى الوقت نفسه الذى تولى فيه «جروفر كليفلاند» رئاسة الولايات المتحدة ، وفى زيارتى لشلالات نياجرا والمعرض الدولى . وقد تَعَرَّضَتْ دراساتى المنتظمة للانقطاع فى تلك الفترة

بسبب السفر ، الأمر الذى يحول بينى وبين تقديم وصف متصل لتلك الدراسات فى هذه السطور .

ذهبنا إلى نياجرا فى مارس ١٨٩٣ ، وربما كان من الصعب علىّ أن أصف شعورى حين وقفت على موقع من الأرض يقع فوق الشلالات الأمريكية[١] ، وصار بوسعى أن أشعر بكل من حركة الأرض وحركة الهواء.

يعتقد أهلى ومعهم بعض الناس أنه من غرائب الأمور أن أزعم أننى أتمتع بمظاهر الجمال فى شلالات نياجرا وبعجائب الطبيعة الأخرى ، وهم دائماً يسألوننى :«مالذى يعنيه هذا الجمال وما الذى تعنيه الطبيعة التى تتحدثين عنها بالنسبة لك ؟ إنك لاتستطيعين رؤية الأمواج تنحدر نحو الشاطئ أو سماع هديرها .. فما الذى تعنيه حقاً تلك الأشياء بالنسبة لك؟» وها أنا بدورى أؤكد بوضوح وبما لايحتمل التأويل أنها تعنى كل شئ بالنسبة لى ؛ فأنا بحواسى لايمكننى أن أفهم الحب أو الدين أو حسن الخلق أيضاً ، لكنها جميعاً تزيد من فهمى للحياة .. وهكذا الأمر بالنسبة للجمال والروعة و الطبيعة !

---

(١) الشلال waterfall : منطقة تسقط عندها مياه أحد الأنهار بصورة مفاجئة ، نتيجة لوجود انخفاض مفاجئ فى مستوى الصخور المكونة لقاع النهر .وشلالات نياجرا توجد على الحدود بين أمريكا وكندا ؛ وتنقسم إلى جزئين : كندى وأمريكى ، وهى تعد من أضخم وأروع شلالات العالم .



أحد المشاهد البارزة فى عصر هيلين كيلر : جروفر كليفلاند يقسم فى عام ١٨٩٣ اليمين القانونية فى حفل تنصيبه الرئيس الثانى والعشرين للولايات المتحدة .. وكانت هيلين فى ذلك الوقت موجودة بالعاصمة واشنطن التى جرى بها حفل التنصيب

وفى عام ١٨٩٣ ذهبت مع الآنسة سوليفان والدكتور «الكسندر جرهام بل» لزيارة المعرض الدولى . ومازلت أذكر تلك الأيام بسرور ففيها تحققت الكثير من أحلامى ، إذ كنت فى كل يوم أتخيل نفسى أقوم برحلة حول العالم ! وقد رأيت فى المعرض الكثير من العجائب القادمة من كل أرجاء الأرض : اختراعات مدهشة ، وبدائع الصناعات والمهارات المختلفة ، وكل أنشطة الحياة

البشرية!.. وكانت جميعها تمر تحت أناملى ؛ فقد منحنى رئيس المعرض الدولى فى بادرة كريمة منه إذناً خاصاً بلمس كل المعروضات ، ومن ثم فقد «رأيت بيدى» أسواق الهند ، ونموذجاً لمدينة القاهرة بمبانيها الفريدة الطراز ، وفى كل أمسية كنا نبحر فى قنوات شبيهة بقنوات البندقية(٢) !

كذلك صعدت إلى ظهر إحدى سفن الفايكنج(٣) ، ووزرت سفينة حربية حديثة فى بوسطن .. وقد عرفت أن السفينة الحديثة بها قدر كبير من الأجهزة والآلات ، أما السفينة القديمة فقد كان البحارة أنفسهم هم كل مابها من الأجهزة والآلات(٤) .

وغير بعيد عن تلك السفينة كان هناك نموذج للسفينة «سانتا ماريا» ، وهى السفينة التى أبحر فيها كريستوفر كولمبس(٥) من

(٢) البندقية Venice : مدينة بشمال شرق إيطاليا ، وهى تتكون من١١٨ جزيرة تقع جميعها فى بحيرة ضحلة (قليلة العمق) ؛ ومن ثم تفصل بين أحياء المدينة (أى الجزر) قنوات مائية وليس شوارع كما هو الحال فى مدن العالم الأخرى!

(٣)الفايكنج vikings : شعب قديم استقر فى بلاد النرويج والسويد والدنمارك بأقصى شمال أوربا ، وتميز ببراعة خاصة فى ركوب البحر والملاحة مما مكنه من القيام بغارات بحرية للنهب والسلب على الكثير من بلاد أوربا . لذلك عرفوا أيضاً باسم«غزاة الشمال» .

(٤)بمعنى أن البحارة كانوا يؤدون بقواهم العضلية ما تقوم به الآلات فى السفن الحديثة .. فهم مثلاً يقومون بالتجديف لدفع السفينة وسط الأمواج .

(٥) كريستوفر كولمبس Christophr Columbus الملاح الإيطالى الذى اكتشف أمريكا عام١٤٩٢ ، وكانت سانتا ماريا santa maria سفينة القيادة وقد صحبتها سفينتان أخريان .

أسبانيا إلى أمريكا .وقد قمت بفحص قمرة (كابينة) كولمبس ومابها من أدوات بسيطة كان يستخدمها فى الملاحة . وأعتقد أنه بوسعى (وبوسعى أنا بصفة خاصة) أن أتخيل كيف كان كولمبس يشعر وهو يبحر مبتعداً عن العالم المعروف ومتجهاً إلى المجهول!

وفى جناح جنوب إفريقيا عرفت الكثير من المعلومات عن كيفية الحصول على الماس من مناجمه فى باطن الأرض . وكنت كلما أمكن ذلك أحرص على لمس الآلات أثناء دورانها من أجل تكوين فكرة أوضح عن الكيفية التى يتم بها وزن تلك الأحجار الكريمة وقطعها وصقلها .

وكان الدكتور بل يرافقنا إلى كل مكان ، وكان بطريقته الخاصة الباعثة على السرور يصف لى الأشياء المثيرة للغاية ؛ ففى جناح الآلات الكهربائية قمنا بمعاينة التليفونات والاختراعات الأخرى ، ومضى يشرح لى كيف يمكن إرسال الرسائل عبر الأسلاك إلى مسافات بعيدة .

وقمنا أيضاً بمشاهدة آثار الحضارات القديمة ، وأكثر ما أثارنى هو تلك الأدوات الحجرية [٦] البسيطة التى صنعها هنود المكسيك

(٦) قبل توصل البشر إلى اكتشاف أساليب صهر المعادن وصناعة أدواتهم منها ، كانت الأدوات المختلفة خصوصاً الأسلحة والأدوات الحادة تصنع من الحجر. لذلك فالعصور السابقة على اكتشاف المعادن تعرف فى مجموعها باسم «العصر الحجرى» نسبة إلى تلك المصنوعات الحجرية . وليس مفهوم العصر الحجرى أنه «عصر التخلف والهمجية» ، فقد اكتشفت حضارات ذات مستوى طيب من الرقى تنتمى إلى ذلك العصر!

الذين عاشوا منذ عصور بعيدة ، كما أثارت اهتمامى أيضاً المومياوات[٧] المصرية القديمة ، مع انى رفضت لمسها خوفاً منها!. وقد تعلمت من كل هذه الأشياء قدراً كبيراً من المعلومات عن التقدم الحضارى للإنسان أكثر مما سمعت أو قرأت فى كل ماوقع بين يدى من كتب ، كما علمتنى كل هذه التجارب عدداً كبيراً من الكلمات الجديدة ، وحققت خلال الأسابيع الثلاثة التى قضيتها فى المعرض قفزة هائلة من مجرد اهتمامات طفلة صغيرة باللعب والقصص إلى فهم وتقدير إنسان ناضج لعالم الحياة اليومية.

وقبل حلول شهر أكتوبر من عام١٨٩٣ كنت قد درست العديد من الموضوعات بنفسى ؛ إذ قرأت تاريخ كل من بلاد الإغريق وروما والولايات المتحدة .وكان لدى كتاب فى قواعد اللغة الفرنسية مطبوعاً بالحروف البارزة (حروف برايل) ، وكنت أعرف قدراً من الفرنسية يكفى لتكوين بعض الجمل والموضوعات الإنشائية الصغيرة فى ذهنى .. وقد تمتعت باستخدام الكلمات الجديدة التى وجدتها فى كتابى الفرنسى ، لكنى لم أوجه عناية

(٧) المومياوات mummies ومفردها «مومياء» هى الجثث المحنطة القديمة التى تنتمى لعصور تاريخية سابقة . ويُطلَق هذا المصطلح بصفة خاصة على مومياوات المصريين القدماء التى حفظوها بالتحنيط ظناً منهم أن ذلك يُسَهِّل بعث الموتى يوم القيامة .. ونحن الآن ندرك جيدا أن الله سبحانه وتعالى الذى خلق البشر من طين قادر كل القدرة على بعثهم من جديد.

كافية لقواعد اللغة الفرنسية بل رَكَّزتُ على محاولة تعلم النطق الصحيح للكلمات الفرنسية ، وكان هذا أمراً مستحيلاً تقريباً لكنه كان إلى حد ما مسلاتى فى بعض الأيام المطيرة . وكنت أعرف من الفرنسية ما يكفينى لأستمتع بقراءة بعض قصص مشاهير المؤلفين الفرنسيين .

وقضيت أيضاً شطراً كبيراً من وقتى فى محاولة تحسين مقدرتى على الحديث ، وكنت أقرأ للآنسة سوليفان بصوت مرتفع أو كنت ألقى بعضاً من قصائدى المفضلة التى أحفظها . وكانت الآنسةسوليفان تصحح لى كلما أخطأت فى كلمة ، وتعاوننى فى التحكم فى درجة صوتى بالرفع أوالخفض ليبدو حديثى طبيعياً بقدر الإمكان.

وفى أكتوبر من عام ١٨٩٣ ، بدأت – بعد أن أفقت من حالة الدهشة والذهول التى سببها لى المعرض الدولى – فى تلقى دروس منظمة فى أوقات منتظمة . وكنت فى تلك الآونة قد اعتدت أنا والآنسة سوليفان على زيارة بعض الأصدقاء فى بنسلفانيا[٨] ، وكان لدى هؤلاء الأصدقاء جار يدعى «المستر أيرونز» كان يعرف اللغة الاتينية معرفة جيدة وبدأ يعلمها لى ، ومازلت أتذكر ذلك الرجل الذى كان حلو الشمائل ودمث الأخلاق بصورة نادرة ،

(٨) بنسلفانيا Pennsylvania : ولاية أمريكية بشمال شرق الولايات المتحدة .

وهذا إلى جانب اتساع معارفه وخبراته . وقد عكف المستر أيرونز أساساً على تعليمى اللاتينية ، لكنه عاوننى أيضاً فى الحساب الذى كنت ما أزال كارهة له ، وراح يقرأ معى بعض عيون الشعر الإنجليزى . وتعلمت فى ذلك الوقت أن أتعرف على الشاعر من أسلوبه كما لوكنت أتعرف على أحد الأصدقاء من طريقة مصافحته لى !

وكنت فى أول الأمر غير راغبة فى دراسة قواعد اللغة اللاتينية ؛ لاعتقادى أنه من السخف التعمق فى دراسة بعض الكلمات بينما معانى الجمل واضحة ، لكننى كلما مضيت فى تلك الدراسة ازددت اهتماماً بها ، إذ كان جمال اللغة يثير البهجة فى نفسى ، لدرجة أننى كثيراً ماكنت أسلى نفسى بقراءة بعض الجمل اللاتينية ومحاولة فهم المعنى حتى برغم عدم إلمامى بمعانى كل الكلمات .. بل إنى فى واقع الأمر مازلت أستمتع بهذا المسلك ، خصوصاً وأنا أعتقد أنه لاشئ هناك أروع من الصور والأفكار التى يستمدها المرء من لغة بدأ لتوه فى تعلمها . وكانت الآنسة سوليفان تجلس بجوارى وأنا أتلقى دروسى ، وتتهجى على يدى كل مايقوله المستر أيرونز ، وتبحث لى عن معانى الكلمات الجديدة فى المعجم . وفى الوقت الذى عدت فيه إلى منزلنا بولاية ألاباما ، كنت قد بدأت لتوى فى قراءة كتاب «حرب قيصر فى

بلاد الغال»[9] .

وفى أكتوبر من عام ١٨٩٤ التحقت بمدرسة «رايت – هوماسون» للصم بمدينة نيويورك وصحبتنى إلى هناك الآنسة سوليڤان ، وقد تم اختيار هذه المدرسة من أجل أن أتعلم فن قراءة الشفاه ، وكذلك من أجل تحسين مقدرتى على الكلام . وفى هذه المدرسة درست أيضاً الحساب والجغرافيا واللغتين الفرنسية والألمانية. وكان باستطاعة معلمة اللغة الألمانية استخدام أبجدية الأيدى ؛ الأمر الذى ساعدنى كثيراً على التقدم فى دراسة هذه اللغة وبعد أن تعلمت قدراً كافياً من الكلمات مضينا نتحدث بالألمانية كلما سنحت لنا الفرصة ، وبعد عدة أشهر كان بمقدورى فهم كل كلمة تقولها المعلمة ، وقبل نهاية السنة الدراسية الأولى قرأت بشغف وسرور عملا فنيا يسمى «وليم تيل»[10] وأعتقد أنى حققت فى دراسة اللغة الألمانية تقدماً يفوق أى تقدم آخر حققته فى أى من دراساتى الأخرى[11] ؛ فاللغة

(٩) قيصر هو «يوليوس قيصر "Julius caesar" السياسى والقائد العسكرى الرومانى الشهير ، و«بلاد الغال» هو الاسم القديم لفرنسا . وقد غزا يوليوس قيصر فرنسا فيما بين عامى ٥٨–٥١ ق م

(١٠) عمل فنى شهير للشاعر الألمانى «شيللر Schiller» تدور أحداثه حول البطل الوطنى السويسرى «وليم تيل» الذى قاوم الاحتلال النمساوى لبلاده .

(١١) اللغة الألمانية هى أقرب اللغات المعاصرة إلى اللغة الإنجليزية ، وكلتاهما تستمد أصلها من لغة قديمة «التيوتونية teutonic»

الفرنسية مثلاً كانت أكثر تعقيداً، وكنت أدرسها على يد سيدة فرنسية لم تكن تعرف أبجدية الأيدى، وكان من المتعذر علىّ كذلك أن أقرأ شفتيها ؛لذا تقدمت فى دراسة الفرنسية بمعدل أبطأ كثيراً من تقدمى فى دراسة اللغة الألمانية . ومع ذلك تمكنت من قراءة عمل فنى شهير للكاتب الفرنسى الساخر الكبير «موليير» ، وكان عملا مسليا للغاية لكنى لم أعجب به بنفس القدر الذى أعجبت به من عمل «وليم تيل» .

ولم يكن تقدمى فى قراءة الشفاه وفى التدريب على الحديث بالقدر الذى كنت أنا والمعلمات نرجوه ونتوقعه؛ إذ كنت أطمح إلى تعلم الكلام على النحو الذى يجعلنى أتكلم كالآخرين .. وكانت المعلمات يعتقدن فى إمكانية تحقيق هذا الهدف ، لكن بالرغم من أننا عملنا جميعاً بجد وإخلاص فلم يكن بمقدورى أبداً أن أرتفع إلى المستوى الذى طمحنا إليه ، وأعتقد أننا وضعنا أمامنا هدفاً بعيد المنال مما جعلنا نخفق فى تحقيقه!

أما علم الحساب فكان بدوره شديد الصعوبة بالنسبة لى ، وقد اعتدت على أحد أمرين : إما أن أخمن الإجابة ، أو أن أجيب دون اتباع أسلوب التفكير المنطقى .. وهكذا سببت بلاضرورة – وبسبب طموحى الزائد – قدراً كبيراً من المتاعب لنفسى ولأولئك الذين توافروا على محاولة تعليمى .

وفى بعض الأحيان كانت تلك الإخفاقات تصيبنى بالحزن ، لكن اهتمامى بالعلوم الأخرى كان يساعدنى على المضى فى المحاولة . وقد استمتعت بصفة خاصة بعلم الجغرافيا ؛ إذ كان من دواعى ابتهاجى أن أتعلم أسرار الطبيعة : كيف تهب الرياح ، وكيف تنحت الأنهار مجاريها عبر الصخور ، وماالذى يسبب هطول الأمطار ، وكيف يستطيع الإنسان أن يقهر الكثير من قوى الطبيعة الأشد منه بأساً!

كان العامان اللذان قضيتهما فى نيويورك عامين سعيدين إلى حد يجعلنى أشعر بالسعادة كلما طافا بخاطرى ، وإنى لأتذكر بصفة خاصة تلك النزهات التى كان الطلاب جميعاً يقومون بها معاً كل يوم فى منتزه «سِنْترال بارك» ؛ إذ كان هذا المنتزه موقعى المفضل والأثير إلى نفسى فى مدينة نيويورك ، وكنت دوماً أشعر بالبهجة فيه ، بل وأحب أن يوصف لى فى كل مرة نرتاده فيها .. إذ يبدو لى أن جماله كان فى كل يوم يتراءى لى بصورة مختلفة عن اليوم السابق له .وفى الربيع قمنا بزيارة العديد من المناطق الجذابة المحيطة بمدينة نيويورك ؛ ومن ذلك مثلاً أننا أبحرنا فى نهر «هدْسون» ، ذلك النهر الذى نَظَمَ فيه الشاعر الأمريكى «برايانت»[١٢] بعض قصائده ، والذى أحببت مايحف بضفتيه من

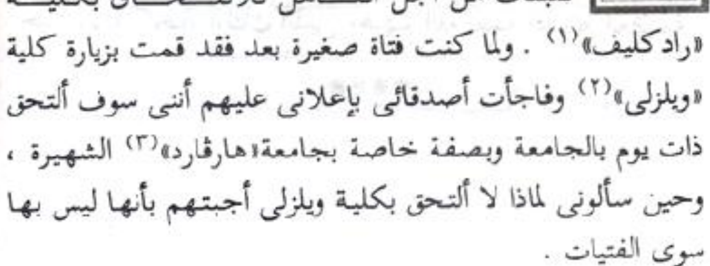
(١٢) برايانت Bryant شاعر وصحفى أمريكى عاش بين عامى١٧٩٤ -١٨٧٨ .

مناظر برية جميلة وأخاذة برغم ماهى عليه من البساطة . وقمنا أيضاً بزيارة منزل الكاتب الأمريكى «واشنطن إرفنج»[١٣] فى تاريتاون بنيويورك. وكان المعلمون بمدرسة رايت هوماسون يفكرون دائماً فى طرائف جديدة لجعل حياة تلامذتهم المصابين بالصم حياة سوية كحياة أولئك الذين وهبهم الله نعمة السمع العظيمة .

****

(١٣) واشنطن إرفنج Washington Irvinj (١٧٨٣-١٨٥٩) : أول كاتب أمريكى ينال شهرة عالمية . وقد درس الحضارة الأندلسية عندما كان سفيراً للولايات المتحدة فى إسبانيا ، ومن مؤلفاته الشهيرة«قصص الحمراء» عن قصر الحمراء رائعة الحضارة العربية الإسلامية فى غرناطة . ويجدر بالذكر أن حفيده - واسمه«واشنطن إرفنج» أيضا مستشرق كبير وقد أشهر إسلامه.

الفصل التاسع



فى أكتوبر من عام ١٨٩٦ التحقت بمدرسة «كمبردج» للبنات من أجل التأهل للالتحاق بكلية «رادكليف»[١] . ولما كنت فتاة صغيرة بعد فقد قمت بزيارة كلية «ويلزلى»[٢] وفاجأت أصدقائى بإعلانى عليهم أننى سوف ألتحق ذات يوم بالجامعة وبصفة خاصة بجامعة «هارڤارد»[٣] الشهيرة ، وحين سألونى لماذا لا ألتحق بكلية ويلزلى أجبتهم بأنها ليس بها سوى الفتيات .

كانت رغبتى فى الالتحاق بالجامعة تنمو وتتزايد كلما كبرت وتزايدت سنوات عمرى ، وكانت تلك الرغبة من الشدة إلى حد أنه لم تكن تثبطنى عن الالتحاق بالجامعة فكرة التنافس مع فتيات قادرات على السمع والبصر ، وقد عارض الكثيرون من الأصدقاء الحقيقيين والعقلاء الفكرة ، لكن الأسرة قررت فى الوقت الذى

(١) كلية رادكليف Radcliffe College تتبع جامعة هارڤارد.

(٢) كلية ويلزلى Wellesley College : توجد فى ويلزلى بولاية ماساتشوستس .

(٣) جامعة هارڤارد Harvard University : جامعة أمريكية عريقة تأسست عام١٦٣٦ ، ونظام التعليم بها تأثر لفترة طويلة بنظم التعليم الأوربية وتعد من الجامعات الأمريكية المرموقة ، لذلك نلحظ حرص هيلين كيلر على الالتحاق بها .

غادرت فيه نيويورك - أن أذهب إلى راد كليف .. وكان هذا أقصى ما أمكننى تحقيقه من طموحى فى سنوات الصبا إلى الالتحاق بجامعة هارڤارد .



منظر لجامعة هارڤارد Harvard الأمريكية العريقة حين تأسست عام ١٦٣٦ فقد ظلت أمنية الالتحاق بهذه الجامعة تداعب خيال هيلين كيلر طوال سنوات الصبا

فى مدرسة كمبردج كانت الآنسة سوليڤان تصحبنى أثناء الدروس وتتهجى على يدى ماتقوله المعلمة . وبالطبع لم يكن لدى أحد من المعلمين فى تلك المدرسة أية خبرة فى التدريس للطلبة الصم والمكفوفين ، ولم تكن هناك طريقة يمكننى بها تبادل الحديث معهم سوى قراءة شفاههم . أما العلوم المقررة علىّ فى

العام الأول فكانت: التاريخ الإنجليزى ، والأدب الإنجليزى ، واللغة الألمانية ، واللغة اللاتينية ، والحساب ، والإنشاء باللغة اللاتينية . وحتى ذلك الوقت لم أكن قد تلقيت قط أية دروس من شأنها تأهيلى للالتحاق بالجامعة ، لكننى كنت قد درست اللغة الإنجليزية كثيراً وتمرست عليها مع الآنسة سوليفان ، لذلك سرعان ماقرر المعلمون أننى لست بحاجة إلى المزيد من دراسة اللغة الإنجليزية ، فيما عدا القراءات النقدية للكتب التى كانت توصى بها الكلية . كما درست اللغة اللاتينية لمدة ستة شهور ، وكانت الألمانية هى اللغة الأجنبية التى أعرفها أفضل من غيرها .

تلك هى الميزات التى بدأت بها ، لكن كانت هناك أيضاً مثالب خطيرة ؛ إذ لم يكن بوسع الآنسة سوليفان أن تتهجى على يدى كل الكتب المطلوبة كذلك كان من الصعب للغاية الحصول على كل الكتب مطبوعة بطريقة برايل بالسرعة الكافية التى تمكننى من استخدامها ، وهذا مع أن الأصدقاء فى فيلادلفيا ولندن لم يدخروا جهداً فى سبيل الحصول على تلك الكتب. وسرعان ماتعلم المدرسون كيف يتفهمون كلامى غير الواضح وصار بمقدورهم الإجابة عن أسئلتى وتصحيح أخطائى .. لكننى لم يكن باستطاعتى الكتابة فى الفصل أو حل التمارين عن طريق الكتابة ، وكنت أكتب كل موضوعات الإنشاء والترجمة فى بيتى

على آلتى الكاتبة .

كانت الآنسة سوليفان تصحبنى كل يوم إلى الفصل وتتهجى على يدى بصبر بالغ كل مايقوله المعلمون ، وفى ساعات المذاكرة كانت تبحث لى عن معانى الكلمات الجديدة فى القاموس وتقرأ وتعيد قراءة النصوص المدونة فى الكتب التى لاتتوافر فى طبعات برايل ، ولاشك فى أن هذا العمل كان باعثاً لها على السأم إلى حد كبير . وقد تعلم كل من مدرسى اللغة الألمانية والمستر «جيلمان» مدير المدرسة أبجدية الأيدى خصيصاً من أجل تعليمى. وكنت أتلقى دروساً خصوصية فى اللغة الألمانية مرتان كل أسبوع، وتولى المستر جيلمان تدريس الأدب الإنجليزى لى طوال جزء من الفصل الدراسى ، وقد ساهمت خبرته الواسعة بالتاريخ والأدب ومقدرته البارعة على الشرح فى تيسير دراستى وتحويلها إلى عمل أكثر بهجة مما كان من الممكن أن يكون عليه الحال لو أننى اقتصرت على الشرح المختصر الذى كنا نتلقاه فى الفصل . وفى تلك المدرسة قرأت مجموعة خطب رجل الدولة البريطانى الشهير «إدموندبيرك»[٤] ، وقد عرفت من هذه الخطب قدراً من المعلومات عن أمور السياسة أكثر مما عرفته من أى كتاب آخر قرأته، كما قرأت أيضاً مع المستر جيلمان كتاب «ماكولى» عن

(٤) إدموندبيرك Edmond Burke (١٧٢٩-١٧٩٧) : فيلسوف سياسى وسياسى بريطانى . ويعد الرائد الأول لفكر المحافظين البريطانيين .

حياة «صموئيل چونسون»[٥] الناقد والكاتب الشهير فى القرن الثامن عشر ، وقد شعرت بالأسف من أجل چونسون الذى كان وحيداً ومريضاً ، وأسعدتنى حقاً النجاحات التى حققها هذا الرجل ووجدت نفسى أغمض عينى عن أخطائه . أما ماكولى فلم أكن أبدا واثقة من أنه كان يقول الحقيقة ، ولم أكن أقبل مايقوله بنفس الموثوقية التى قبلت بها خطب بيرك .

وفى مدرسة كمبردچ ظفرت ولأول مرة بصحبة بنات فى مثل عمرى قادرات على السمع والرؤية ، إذ كنت أعيش مع عدد منهن فى واحد من أجمل البيوت الداخلية الملحقة بالمدرسة ، وقد اعتدت على مشاركتهن فى بعض ألعابهن ، كما كنا نقوم معاً بنزهات طويلة نتناقش أثناءها فى دراساتنا ونقرأ بصوت عال الموضوعات التى كانت تثير اهتمامنا . وقد تعلمت إحدى الفتيات أبجدية الأيدى مما جعل الآنسة سوليفان غير مضطرة دائما للاضطلاع بمهمة إحاطتى بما كن يتناقشن فيه من موضوعات.

وفى الأعياد كانت والدتى وشقيقتى الصغيرة تقضيان الأجازات معنا وقد عرض المستر جيلمان فى كرم إلحاق أختى ملدريد بالدراسة فى المدرسة ومن ثم مكثت ملدريد معى فى كمبردچ ، وكنا لمدة ستة شهور بهيجة لانكاد نفترق ، ومن دواعى سعادتى أن

(٥) صموئيل چونسون Samuel Johnson (أو الدكتور چونسون ١٧٠٩-١٧٨٤ : شاعر وناقد ومُعْجَمى وكاتب صحفى إنجليزى شهير.

أتذكر تلك الساعات التى كنا نقضيها فى المذاكرة معاً وفى اللهو والمرح معاً .

وقد أديت أولى امتحاناتى من أجل الالتحاق بكلية رادكليف فى الفترة مابين ٢٩ يونيو إلى ٣ يوليو من عام ١٨٩٧ ، وكانت مواد الامتحان تشمل اللغة الألمانية واللغة الفرنسية واللغة اللاتينية واللغة الإنجليزية والتاريخ الإغريقى والرومانى . وقد نجحت فى كل هذه المواد وحصلت على درجات الشرف فى اللغتين الألمانية والإنجليزية.

وربما كان من الأفضل أن أوضح للقراء الطريقة التى اتبعتها فى أداء الامتحانات؛ فقد كانت أوراق الأسئلة توزع فى الساعة التاسعة فى جامعة «هارڤارد» ، فيقوم رسول خاص بإحضارها إلى كلية رادكليف. وكان لكل طالبة رقم جلوس خاص ، فرقم جلوسى مثلاً هو ٢٣٣ ؛ لكن نظراً لكونى أستخدم آلة كاتبة فقد كانت ورقتى مميزة ومعروفة .. والطريف أنى كنت أؤدى الامتحان فى غرفة مستقلة لئلا يزعج ضجيج آلتى الكاتبة البنات الأخريات ويؤثر على مقدرتهن على الإجابة . واعتاد المستر جيلمان أن يقرأ علىَّ أسئلة الامتحانات باستخدام أبجدية الأيدى ، وكان يتولى حراسة الباب حارس خاص ليحول دون تعرضى للإزعاج .

فى اليوم الأول أديت امتحان اللغة الألمانية ، وقد جلس المستر

جيلمان بجانبى وقرأ لى ورقة الامتحان قراءة سريعة أولاً ، ثم أخذ يقرأها جملة جملة وكنت أردد الكلمات بصوت مرتفع لكى يتأكد من فهمى الدقيق لكل مايقصده . وكانت الأسئلة تتسم بالصعوبة إلى حد جعلنى أشعر بالقلق وأنا أكتب إجاباتى على آلتى الكاتبة . وكلما كتبت شيئا كان المستر جيلمان يتهجاه لى على يدى لكى يتسنى لى القيام بما أراه ضرورياً من تعديلات . وأريد أن أؤكد الآن على أننى لم أتمتع قط بمثل هذه المزايا التى تمتعت بها فى امتحاناتى الأخيرة فى كلية رادكليف؛ فلا أحد من قبل يقرأ لى أوراقى بعد أن أكتبها .. ولم تكن لدى فرصة تصحيح أخطائى مالم أفرغ من الامتحان مبكراً ، فحينئذ فقط كنت أصحح الأخطاء التى بوسعى تذكرها فى الوقت المتبقى وأدون ملحوظات حول تلك التصحيحات فى نهاية ورقة الإجابة . وإذا كنت قد حصلت فى امتحاناتى الأولى على درجات أعلى مما فى حالة الامتحانات النهائية ، فذلك راجع إلى سببين : الأول أننى فى الامتحانات النهائية لم يكن لدى من يقرأ لى أوراق الأسئلة ، والثانى أن امتحاناتى الأولى شملت موضوعات كنت أعرف بعض جوانبها قبل دراستى فى مدرسة كمبردج .وبالطبع قام المستر جيلمان بإرسال أوراق الإجابة إلى الممتحنين ومعها تقرير يفيد بأننى – أنا صاحبة رقم الجلوس٢٣٣ –قد قمت بكتابة الأوراق بنفسى .. وهو إجراء روتينى يتعين اتباعه فى مثل هذه الحالات .

وقد جرت بقية الامتحانات بنفس الطريقة ، وكانت جميعها أسهل من الأول ، وأتذكر أننى فى يوم امتحان اللغة اللاتينية جاء إلينا مدرس تلك اللغةوأخبرنى بأننى نجحت فيها .وقد شجعنى ذلك تشجيعاً كبيراً وجعلنى أؤدى الامتحانات التالية بمعنويات عالية واقتدار أكبر ، ومضيت أكتب بسرعة كبيرة وقلبى مفعم بالسعادة .

وحين بدأت عامى الثانى فى مدرسة جيلمان كنت موفورة الأمل والطموح وعازمة على تحقيق النجاح ، لكن الأسابيع القلائل الأولى كانت مليئة بالصعوبات . وقد وافق المستر جيلمان على قيامى بدراسة الرياضيات بصفة أساسية فى ذلك العام ، وكانت المواد المقررة هى الفيزياء والجبر والهندسة واللغتان اليونانية واللاتينية .ولم تكن الكثير من الكتب التى كنت بحاجة إليها من أجل المضى فى تلك الدراسة قد طُبِعتْ بعد بطريقة برايل لكى أبدأ بها دراستى ، ومن ناحية أخرى كانت الفصول التى التحقت بها مزدحمة بالطالبات وكان من المستحيل على المعلمين أن يولونى عناية خاصة لذلك اضطرت الآنسة سوليڤان إلى قراءة كل الكتب لى ، كما كانت أيضاً تتهجى على يدى ماكان المعلمون يقولونه فى الفصل ، وكان العمل يبدو فى بعض الأحيان فى غاية الصعوبة حتى بالنسبة للآنسة سوليڤان !

وكان لزاماً علىَّ أن أكتب دروس الجبر والهندسة فى الفصل ، وأن أقوم أيضاً بحل المسائل فى حصص الفيزياء ، لكن هذا العمل لم يكن ممكناً حتى قمنا بشراء آلة كاتبة تعمل بطريقة برايل ليتسنى لى أن أعيد قراءة ماأكتبه بنفسى ، وكنت أستخدم هذه الآلة الكاتبة فى كتابة الدروس وحل التمارين .وكانت هناك مشكلة غريبة تتعلق بعلم الهندسة ، إذلم يكن باستطاعتى رؤية الرسوم الهندسية التى كان المعلمون يرسمونها على السبورة ، ومن ثم كانت الطريقة الوحيدة التى تتيح لى التعرف على تلك الأشكال تتمثل فى تجهيز نماذج عملية لها على قطعة من القماش باستخدام أسلاك مستقيمة وأخرى مقوسة [٦] ، وكان يتعين علىَّ أن أحتفظ دائماً فى ذهنى بقدر كبير من التفاصيل عن كل مسألة . وكنت فى بعض الأحيان أفقد كل شجاعتى ، وأعبر عن مشاعرى بطريقة عصبية يؤسفنى أن أتذكرها الآن خصوصاً أن تلك الانفلاتات كانت تحسب بعد ذلك ضد الآنسة سوليڤان بينما هى فى واقع الأمر الشخص الوحيد من بين كل

(٦) لجأت هيلين إلى هذا الأسلوب لتحول الأشكال التوضيحية الهندسية من «أشكال مرئية» إلى «أشكال ملموسة» يمكن تحسسها باليد وتكوين فكرة عنها. لكن هذا الأسلوب لم يكن كافياً بالطبع للإحاطة الكاملة بالشكل كما يحدث فى حالة الرؤية ؛ فالشخص المبصر يستطيع فى نظرة واحدة معرفة العلاقات بين الأضلاع والزوايا والأقواس .. إلخ أما هيلين فلم يكن بوسعها إلاأن تحرك يدها من جزء لآخر من أجزاء الشكل المجسم لتكون فى النهاية فكرة ضعيفة ومنقوصة عن طبيعة هذا الشكل والعلاقات بين أجزائه!

الأصدقاء الطيبين الذى ساعدنى حقاً على فهم أمور الدنيا وطبائع الأشياء!

وشيئا فشيئا بدأت الصعوبات تتبدد وتختفى ؛ إذ وصلت كتبى المطبوعة بطريقة برايل ، وبدأت أستذكر دروسى بقدر أكبر من الثقة، لكن الجبر والهندسة بقيا العلمين الوحيدين اللذين يصعب علىَّ فهمهما . وكما سبق أن ذكرت فأنا لست بارعة فى الرياضيات ، كما أن الجوانب المختلفة لتلك العلوم لم تشرح لى تماما بالطريقة التى كنت أتمناها ، وكانت الأشكال التوضيحية الخاصة بالهندسة تمثل صعوبة كبيرة بالنسبة لى لأنه لم يكن بوسعى رؤية التناسب والعلاقات المختلفة بين أجزاء الشكل الهندسى ، حتى حين كنت أقوم بتنفيذها بقطع من السلك على القماش .

وكنت فى سبيلى إلى قهر كل تلك الصعوبات عندما وقع حدث قلب كل شئ رأساً على عقب ؛ فقبل أن تصل كتبى مباشرة أخبر المستر جيلمان الآنسة سوليڤان أننى أتقدم بصعوبة شديدة ، وقام برغم احتجاجى بتخفيض عدد الحصص التى أتلقاها. وكنا فى البداية قد اتفقنا على أن أتلقى خمس سنوات من الدراسة للتأهل للجامعة إذا لزم ذلك ، لكن نجاحى فى امتحاناتى الأولى أوضح بجلاء أن باستطاعتى إنجاز ذلك التأهل فى

عامين فقط ، وقد وافق المستر جيلمان على ذلك أول الأمر ، لكنه عاد بعد أن أدرك صعوبة الدراسة بالنسبة لى فأصر على أننى أتقدم بصعوبة شديدة ، وعلى أنه يتعين علىّ أن أمكث فى مدرسته ثلاثة أعوام أخرى ، ولم يرقنى هذا القرار نظراً لشدة رغبتى فى الالتحاق بالجامعة مع طلبة صفى.

وفى يوم ١٧ نوفمبر لم أكن بحالة صحية طيبة ولم أذهب إلى المدرسة ، فإذا بالمستر جيلمان يقول :إننى بغيابى هذا أُعْتَبَر منقطعة عن الدراسة ، ويقوم بتغيير خطة دراستى على نحو جعل من غير الممكن أن أؤدى امتحاناتى النهائية مع طلبة صفى . وفى نهاية الأمر اضطر الخلاف فى الرأى بين الآنسة سوليفان والمستر جيلمان ووالدتى إلى إنهاء التحاقى بمدرسة كمبردج أنا وأختى ملدريد ، وقررنا فى ذلك الوقت أن أواصل دراستى بمساعدة مدرس خاص هو المستر «ميرتون س. كيث» من كمبردج . وأمضيت أنا والآنسة سوليفان بقية الشتاء مع بعض الأصدقاء الذين كانوا يعيشون فى مدينة صغيرة اسمها «رينتهام» تقع على بعد ٤٠ كيلو متراً من بوسطن . وقد واظب المستر كيث فى الفترة من فبراير إلى يوليو عام ١٨٩٨ على المجئ إلى رينتهام مرتين أسبوعياً وأخذ يلقى علىّ دروساً فى الجبر والهندسة واللغتين اليونانية واللاتينية ، وكانت الآنسة سوليفان تترجم لى الدروس أولاً بأول.

وفى أكتوبر من عام ١٨٩٨عدنا إلى بوسطن ، وواصل المستر كيث طوال ثمانية أشهر دروسه لى بمعدل خمس مرات أسبوعياً وكانت مدة كل درس حوالى ساعة ، وقد اعتاد أن يشرح لى فى كل حصة مالم أفهمه فى الدرس السابق ، ثم يلقى علىّ درساً جديداً.. وعند الانتهاء من الدرس كان يأخذ معه إلى بيته تمارين اللغة اليونانية التى كتبتها خلال الأسبوع على آلتى الكاتبة ويصححها تصحيحاً دقيقاً ثم يعيدها إلىّ.

على هذا النهج واصلت المسير بدون انقطاع فى رحلة الاستعداد لدخول الجامعة ، والطريف فى الأمر أننى وجدت تلقى الدروس بهذه الطريقة أيسر وأكثر بهجة بالنسبة لى من تلقيها فى الفصول المدرسية التقليدية ! وبالطبع لم يكن هناك داع للعجلة ، كما أنه لم يقع أى اضطراب فى مسار الدراسة على هذا المنوال . وكان لدى المستر كيث فسحة من الوقت ليشرح لى مالم أكن أفهمه ، مما جعلنى أحقق المزيد من التقدم وأؤدى أداء دراسياً أفضل مما كان عليه الحال فى المدرسة ! لكننى كنت ما أزال أجد الرياضيات أكثر صعوبة من سائر مواد الدراسة ، وأتمنى لو كان الجبر والهندسة أكثر سهولة ولو بمقدار نصف سهولة اللغات والأدب ! ومع ذلك يمكننى القول بأن المستر كيث جعل

الرياضيات مثيرة لاهتمامي بدرجة أكبر ونجح في جعلي أتفهمها بالقدر المناسب . وقد حافظ على انتعاش عقلي وتوثبه، وقام بتدريبه على كيفية الاستنباط في تَبَصّر ورَوِية بدلاً من القفز بالتفكير قفزات منفلتة لاتوصل العقل إلى تحقيق أية نتيجة على الإطلاق . وبدا هذا المعلم دائماً رقيقاً معي وعطوفاً عليّ .. مع إني كنت أحياناً أبدى من البلاهة قدراً كافياً لاغتيال صبر أي شخص!

A		N	
B		O	
C		P	
D		Q	
E		R	
F		S	
G		T	
H		U	
I		V	
J		W	
K		X	
L		Y	
M		Z	

حروف برايل للمكفوفين تتكون من نقاط بارزة على الورق ويمكن للمكفوف القراءة عن طريق تحسسها بأصبعه

وفي يومي ٢٩/ ٣٠ يونيةِ من عام ١٨٩٩ أديت امتحاناتي النهائية بغرض الالتحاق بكلية رادكليف ، وشملت الامتحانات اللغتين اليونانية واللاتينية وعلمي الهندسة والجبر . ولم تسمح إدارة الكلية للآنسة سوليڤان بأن تقرأ لي أوراق الامتحانات ؛ إذ بدلاً من ذلك قام أحد المعلمين بمؤسسة بركنز للمكفوفين بنسخ الامتحانات بطريقة برايل خصيصاً من أجلي ، ولم أكن أعرف هذا المعلم ، كما أنه كان ممنوعاً من التحدث معي إلا عن طريق الكتابة بطريقة برايل .

وكانت الكتابة بطريقة برايل وافية بالغرض تماماً فيما يتعلق بالامتحانات اللغوية ، لكنها لم تكن كذلك بالنسبة لامتحانات الرياضيات . وكنت دائماً أستخدم في دراسة الجبر النمط الإنجليزي من طريقة برايل ، لكنني قبل الامتحانات بيومين اكتشفت أن طريقة برايل الأمريكية في سبيلها للاستخدام ، ومن ثم صار لزاماً عليّ أن أتعلم نظاماً جديداً للكتابة في السويعات الأخيرة ، وترتب على ذلك إصابتي بالارتباك أثناء تأديتي للامتحان، بل إنني في واقع الأمر لست متأكدة تماماً الآن من أني كنت أقرأ الإشارات والعلامات قراءة صحيحة ! وكنت معتادة على أن يتهجى لي شخص ما مسائل الهندسة على يدي ، ولم

أكن معتادة فى الوقت ذاته على كتابة إجاباتى فى الامتحانات على آلتى الكاتبة .. بل كنت دائما أتوصل إلى الحلول إما بكتابتها بطريقة برايل أو من خلال التفكير الدائر فى ذهنى .. إلا إنى برغم صعوبة الامتحانات الشديدة بالنسبة لى كانت معنوياتى مرتفعة وتولدت لدى القناعة بأنى تمكنت حقاً من قهر كل الصعوبات .. وبالفعل تحقق أملى العظيم فى نهاية المطاف وأصبح بمقدورى الالتحاق بكلية رادكليف !

****

الفصل العاشر

استقر رأينا أخيراً على أنه يَحْسُن بى أن أدرس عاماً آخر تحت إشراف المستر كيث قبل التحاقى بالكلية ، ولهذا لم يتحقق حلمى فى الذهاب إلى الجامعة فعلاً إلا بحلول خريف عام ١٩٠٠ . ومازلت طبعاً أذكر يومى الأول فى كلية رادكليف ؛ إذ كان يوماً مفْعَماً بالإثارة بالنسبة لى لأننى ظللت أتطلع إليه على مدى عدة سنوات من عمرى .

كانت بداخلى قوة هائلة تدفعنى وتجعلنى راغبة فى مواجهة ذات الصعاب والاختبارات التى يواجهها عادة أولئك القادرون على السمع والبصر وقد نصحنى أصدقائى بألا أحاول ذلك ، بل إنه حتى قلبى الذى بين ضلوعى كان يحاول فى بعض الأحيان إقناعى بالتخلى عن تلك الرغبة الملحة . وكنت أدرك تمام الإدراك أننى فى سبيلى لمواجهة أمر ليس باليسير ؛ ومن ثم عزمت على قهر كل الصعاب ، وترسخ فى نفسى الشعور بأننى قادرة على التعلم بنفس القدر الذى يمكن أن يتعلم به أى شخص قادر على الرؤية والسمع ؛ فكل الفارق بينى وبينهم أن ظروفى كانت تحتم علىّ تحصيل المعرفة بطريقة مختلفة . وخامرنى شعور بأننى فى الكلية يمكن أن أصبح وثيقة الصلة بالكثير من الفتيات اللاتى

يفكرن ويناضلن ويبدين مشاعر الحب والأمل مثلى !

شَرَعْتُ فى دراستى بجد وشغف ، وكنت فى ذلك الوقت أرى عالماً ينفتح أمامى .. عالماً مزدهياً بالجمال وسنياً بالضياء ، وشعرت أن باستطاعتى تعلم كل شئ ، اعتقاداً منى بأنه خليق بى فى دنيا العقل والفكر أن أكون حرة طليقة كأى شخص آخر ، وأن ماتحفل به تلك الدنيا من المشاهد المتنوعة والطرائف المتباينة وألوان السعادة والتعاسة سوف تعيننى جميعاً على تفهم طبيعة العالم الحقيقى المحيط بى .. بل إن الفصول الدراسية بدت لى مأهولة بأرواح العظماء والحكماء ، وبدا لى الأساتذة متسمون برجاحة العقل والحكمة.

لكننى سرعان ما اكتشفت أن الكلية ليست هى تماماً الطريق الذى تصورته أحلامى ، شيئا فشيئا مضيت أكتشف أن ثمة أشياء غير طيبة تكتنف الذهاب إلى الكلية ؛ فعلى سبيل المثال لم يكن لدى مايكفى من الوقت .. فأنا قد تعودت على أن يتوافر لدىّ قدر كاف من الوقت لأفكر، أو لأجلس على انفراد فى المساء وأحلم ، أو لأهيم مع إحدى القصائد التى أفضلها . لكننى فى الكلية لم أكن أجد وقتاً لكل هذا ! فالمرء يذهب إلى الكلية ليتعلم على مايبدو لاليفكر ويتأمل .. والمرء عندما يذهب إلى الجامعة يترك وراءه الكتب والخيال ومتعة الانفراد بذاته . وقد تعودت فى ذلك

الوقت على إراحة نفسى بفكرة أننى أقوم بتحصيل الثروات الآن لكى استخدمها مستقبلاً .. لكننى فى واقع الأمر كنت أفضل السعادة والبهجة فى الوقت الحاضر على أية ثروات يمكن أن أمتلكها فى المستقبل!

تمثلت مواد الدراسة فى العام الأول فى اللغتين الفرنسية والألمانية ، والتاريخ ، والإنشاء الانجليزى والأدب الانجليزى ، ومضيت فى ذلك العام أقرأ الكثير من أعمال المؤلفين الفرنسيين والألمان ، كما درست فى استعراض سريع مجمل الفترة التاريخية الممتدة من سقوط الإمبراطورية الرومانية[١] إلى القرن الثامن عشر، وفى إطار مادة الأدب الإنجليزى درست الشاعر «ميلتون»[٢] .

كثيراً ماسألنى الناس كيف أتغلب على الصعوبات التى اعترضت مسار دراستى فى الكلية .. وهاأنذا أجيب ؛ فمن الناحية العملية كنت بالطبع وحيدة فى الفصل وكان الأستاذ بعيداً عنى

(١) سقطت الإمبراطورية الرومانية عندما أطاح الزعيم القبلى الجرمانى «أودواسرا Odoacer» بآخر الأباطرة الرومان وأعلن نفسه ملكاً على إيطاليا عام٤٧٦م . وهذا الحدث يُعَدّ بداية حقبة التاريخ الوسيط الذى ينتهى باحتلال العثمانيين للقسطنطينية عام١٤٥٣م ، ليبدأ التاريخ الحديث الذى ينتهى فى القرن الثامن عشر أو على وجه الدقة فى عام١٧٨٩م (وهو عام وقوع الثورة الفرنسية) وبعده يتواصل التاريخ «المعاصر» إلى يومنا هذا . وبذلك تكون هيلين قد درست فى عامها الجامعى الأول التاريخين الوسيط والحديث معاً .

(٢) عاش الشاعر الإنجليزى «ميلتون Milton» بين عامى١٦٠٨-١٦٧٤ ، وقد كف بصره واضطر إلى إملاء أعماله الرئيسية على الغير .

كل البعد كما لو كان يتحدث إلىّ عن طريق الهاتف (التليفون) وكانت المحاضرات تترجم لى بالهجاء على يدى بأسرع مايمكن ، ومن ثم كانت الشخصية الذاتية للأستاذ تغيب عنى عادة بحكم عدم تواصلى[٣] معها ؛ فالمحاضرات كانت تترجم لى بالطريقة التى يمكننى فهمها بها بسرعة بالغة ، والأفكار كانت تتدافع إلى رأسى كما تتدافع الكلاب حين تطارد أرنباً .. فهى فى بعض الأحيان لاتستطيع ملاحقته ! لكن لست أعتقد أننى من هذه الناحية كنت أسوأ حالاً من سائر الفتيات اللائى كن يدوّن المحاضرات . فحين يكون العقل مشغولاً بعملية الرؤية وملاحقة الكتابة على الورق بأسرع مايمكن فلا أعتقد أن المرء حينئذ يكون بوسعه أن يولى قدراً أكبر من الاهتمام بالموضوع أوبالطريقة التى يقدم بها . وأنا بصفة خاصة لم يكن بمقدورى الكتابة أثناء المحاضرات لأن يدىّ كانتا مشغولتين بعملية السمع[٤] !. وعادة كنت أقوم بكتابة مايمكننى تذكره من نصوص المحاضرات حين أعود إلى المنزل ، كما كنت أقوم بكتابة حلول التمارين ومواضيع

(٣) لم تكن هيلين ترى الأستاذ المحاضر أو تسمعه ، والمحاضرة كانت تترجم لها على يدها بسرعة كبيرة لاتسمح لها بالتعرف على خصائص شخصية الأستاذ وأسلوبه فى التعبير والإلقاء .. فكأنه بالنسبة لها غير موجود على الإطلاق!

(٤) بينما الأستاذ يلقى محاضرته كان شخص ما- غالباً المعلمة آن سوليفان - يقوم بترجمتها لهيلين على يديها باستخدام أبجدية الأيدى .. فكأن هيلين كانت تسمع بيدها !

الإنشاء وإجابات الاختبارات والامتحانات على آلتى الكاتبة مما كان يتيح للأساتذة أن يكتشفوا دون أدنى صعوبة أننى لاأعرف سوى القليل . وكنت أستخدم آلة كاتبة من نوع يمكن تغيير نمط حروفه ، وكان لدىّ حروف يونانية وعلامات ورموز رياضية ومجموعة من الحروف مزودة بالنبرات الفرنسية ، وبدون مثل هذه الآلة الكاتبة أشك أنه كان بمقدورى الذهاب إلى الكلية أصلاً !

ولم يكن متوافراً فى طبعات برايل سوى القليل جداً من الكتب التى كنت بحاجة إليها فى مجالات الدراسة المختلفة ، ومن ثم لم يكن يتسنى لى معرفة محتوى الكتب الباقية إلاعن طريق قيام شخص بتهجيها لى على يدى ، ولهذا السبب ذاته كنت بحاجة إلى وقت أكبر فى استذكار دروسى مما تحتاج إليه زميلاتى الأخريات. وفى بعض الأحيان كنت أشعر بحزن شديد على حالى حين أجد نفسى مضطرة لإنفاق ساعات طوال فى قراءة عدد قليل من الفصول ، بينما كانت الفتيات الأخريات ينعمن بالضحك والمرح غير بعيد عنى . ومع ذلك حرصت دائماً على تبديد تعاستى بالضحك منها لأنى كنت أدرك كل الإدراك أن كل امرئ راغب فى تحصيل المعرفة الحقيقية لابد من أن تكون لديه من الصعوبات مايتعين عليه مواجهتها وحده .. فليس هناك طريق سهل معبد إلى المعرفة ، بل الطريق إليها وعر منحدر وينبغى علىّ

أن أتسلقه بكل مالدى من مقدرة وبأفضل طريقة أستطيعها .كنت كثيراً ماأنزلق عائدة إلى الوراء ، وكنت أسقط على الأرض أو أتوقف عن التقدم ، وكنت أتعثر فجأة فى صعوبات غير متوقعة ، بل وكنت فى بعض الأحيان أنقلب إلى حدة المزاج وسوء الطبع ، لكننى فى جميع الأحوال كنت ماألبث أن أستعيد سكينتى وأتمالك نفسى فأخرج للسير لبعض الوقت ليتبدد مابى من الإحباط بعض الشئ وأشعر بشجاعتى ترتد إلىّ وأسترد شغفى ودأبى فأعاود الصعود وأبدأ فى رؤية الأفق الرحيب .. ولم أكن وحيدة دائماً فى نوبات النضال هذه ، فالأصدقاء الطيبون كانوا إلى جانبى يعينونى ، ويوفرون لى الكثير من الكتب التى أحتاج إليها مطبوعة بطريقة برايل ، وكان اهتمامهم بى ورعايتهم لى يسديان إلىّ من العون والتشجيع أكثر مما كان بوسعهم أن يتصوروا .

وفى العام الماضى[٥] – وهو ثانى أعوامى فى كلية رادكليف – مضيت أدرس الإنشاء الإنجليزى والأدب الإنجليزى والنظم الحكومية فى أمريكا وأوربا ، وكذلك قصائد وأعمال فنية باللغة اللاتينية . وكانت أكثر الدروس إضفاء للسرور على قلبى هى دروس الإنشاء ، فهى جذابة رائعة ، وكانت المحاضرات دائماً مثيرة

(٥) كتبت هيلين قصة حياتها التى بين يدى القارئ وهى لاتزال طالبة فى كلية رادكليف .

للغاية ومخاطبة للذكاء ، وكان أستاذ المادة – وهو المستر تشارلز تاونسند كوبلاند – حريصاً على حفز الطلاب على إدراك وتذوق عذوبة وروعة الأدب ، وكنا فى حصص الأدب ننهل من جمال التعبير وروعة الأسلوب لدى كبار الكتاب ودونما أية شروح إضافية لاضرورة لها .. فأنت تقرأ لتستمتع بأفكارهم السامية ، ثم تعود إلى منزلك والشعور يخامرك بأنك قد رنوت إلى الكمال ذاته.

وكان ذلك العام أسعد الأعوام بالنسبة لى لأننى توفرت فيه على دراسة مواد محببة أثيرة إلى نفسى هى الاقتصاد ، والأدب الإليزابثى[٦] ، وشكسبير الذى كان يلقى علينا دروسه البروفيسور جورج ل . ليتردج ، وتاريخ الفلسفة الذى كان يلقى علينا دروسه البروفيسور جوزيا رويس . ودروس الفلسفة ذات أهمية خاصة لأن المرء يتعلم منها كيف يتفهم الأساليب التى كان الناس يفكرون بها فى الماضى وكيف يتعاطف معها ، وبعد دراستها يصبح المرء على ألفة مع أساليب التفكير التى كانت قبل ذلك تبدو غريبةعليه وليس لها مايبررها .

ومع ذلك فالكلية ليست المدينة الفاضلة للعقل كما كنت أتصور من قبل ؛ ففيها لايلتقى المرء بالعظماء والحكماء وجهاً

(٦) الأدب الإليزابثى : الأدب الإنجليزى فى عصر الملكة«إليزابيث الأولى» التى حكمت إنجلترا بين عامى١٥٥٨-١٦٠٣م ، ويعدّ عصرها من أزهى عهود الأدب الإنجليزى ففيه ظهر شكسبير.

لوجه ، ولايستشعر فيهم لمسة الحياة .. صحيح أنهم موجودون فى الكلية ، لكنه وجود محنّطٌ يبدون من خلاله فى حالة جفاف وموت ، حتى أنه يتعين علينا فصل كل منهم على حدة وفحصه بدقة قبل أن يتسنى لنا التأكد من أن الذى أمامنا هو نص لكاتب عظيم لامجرد تقليد بارع . ويبدو لى أن الكثير من الدارسين المتعمقين ينسون أن متعتنا الحقيقية بالأعمال الأدبية العظيمة تعتمد على تعاطفنا مع الكاتب أكثر مما تعتمد على تفهمنا لما يكتب ، وأن من الصعب علينا أن نتذكر الشروح المعقدة لهؤلاء الدارسين التى يسقطها العقل عادة كما يسقط غصن الشجرة ثمرة ناضجة رطبة . ونحن يمكننا معرفة كل شئ عن الزهرة وعملية نموها دون أن نرتفع إلى مستوى إدراك وتقدير جمال وروعة تلك الزهرة حين نراها فى فيض من أشعة الشمس .وكنت مراراً وتكراراً أسأل نفسى بصبر نافذ«لماذا يتعين علىّ الانكباب على تلك الشروح والنظريات ؟» ؛ إنها تحلق فى عقلى هنا وهناك كأنها طيور عمياء تضرب الهواء بأجنحتها دون أن يكون لها هدف محدد . ولست أقول ذلك على سبيل الاعتراض على الإحاطة الشاملة بالكتب الشهيرة التى درسناها ، فما أعترض عليه فقط هو تلك الشروح النقدية المسهبة التى لاتعلمنا سوى شئ واحد : أن هناك من الآراء المختلفة بقدر ما هناك من بشر . ومع ذلك كان الأمر يختلف كثيراً حينما يقوم أستاذ قدير كالبروفيسور

كيتردج بشرح مايكتبه هؤلاء الجهابذة ؛ فالأمر يبدو حينئذ وكأن شخصاً ضريراً قد ارتد إليه بصره، لأننا حين كان البروفيسور يلقى علينا محاضراته كنا نشعر وكأن شكسبير قد عاد بإذن الله إلى الحياة!

كانت تجئ علىّ أوقات أشعر فيها بالغربة فى نسيان نصف ماكان مفروضاً على أن أتعلمه ، إذ أعتقد أن من المستحيل قراءة أربعة أوخمسة كتب فى يوم واحد وبلغات مختلفة وفى موضوعات مختلفة بدون أن أدرك الحكمة الماثلة وراء القيام بكل هذه القراءات ؛ فالمرء حين يقرأ على عجلة وفى حالة من العصبية والارتباك دون أن يفكر فى شئ آخر غير الاختبارات والامتحانات التحريرية ، يصبح ذهنه مثقلاً بقدر ضخم من المعلومات التى لاتبدو أكثر من مجرد حشو لاطائل من ورائه ولا فائدة ! وكان عقلى فى ذلك الوقت حافلاً بحشد هائل من الأشياء المختلفة إلى حد لم أكن معه أملك القدرة على تنظيم معلوماتى والتنسيق بينها، وكنت كلما خطوت نحو «مملكة العقل»[٧] شعرت كما لو أن الأرواح الشريرة تطاردنى وتتعقب خطاى.

وكانت الامتحانات من دون شك تمثل الجانب الأصعب من حياتى الجامعية ؛ فبالرغم من كونى واجهتها لعدد كبير من

(٧) تقصد كلما خطَتْ نحو التفكير السليم والتأمل بعد هضم واستيعاب القدر المناسب من المعلومات .

المرات وتمكنت فى كل مرة من قهرها ، فقد كانت تنهض من جديد وتتحدانى بالوعيد حتى تهتز نفسى وتخوننى شجاعتى . وأنت حين تواجه امتحاناً ، فإنك تقضى الأيام السابقة للامتحان فى حشو ذهنك بأكبر قدر ممكن من الحقائق والتواريخ .. قدر كبير للغاية إلى حد تنتابك معه الرغبة فى أن تصبح أنت ومامعك من الكتب فى قرار مكين تحت سطح البحر! وفى نهاية المطاف تجئ ساعة الفزع وتكون محظوظا حقا حين تشعر بنفسك مهيئا للامتحان وبأنك قادر على تذكر المعلومات التى تحتاج إليها فى الوقت نفسه الذى تحتاج إليها فيه .

وأكثر مايثير الحنق والغيظ أن تبدو ذاكرتك وقد نما لها جناحان لتطير بهما بعيداً فى ذات اللحظة التى تكون فيها فى أشد الحاجة إليها ، فالحقائق التى تتعلمها وتستذكرها بالجهد الجهيد غالباً ماتقترف فى حقك جريمة الخيانة حينما تهرب منك فى الوقت الذى تكون فيه فى حاجه ماسة إليها .

قد تجد نفسك فى الامتحان أمام سؤال كالتالى: أكتب مقالاً مختصراً عن «هَسْ» وإنجازاته .ياللعجب «هَسْ» ؟ ومن يكون هَس هذا ؟ وماهى إنجازاته ؟ .. وبرغم المفاجأة فالاسم يبدو لك مألوفاً بعض الشئ وإن كنت لم تدرك لأول وهلة من يكون !فتأخذ فى

البحث والتفتيش فى كل الحقائق التاريخية التى تعرفها ، ويصبح الأمر أشبه بالبحث فى سلة مليئة بقصاصات من القماش من أجل الحصول على قصاصة صغيرة من الحرير تريدها .ولاشك فى أنك تكون واثقاً فى الوقت ذاته من أن المعلومة موجودة فى مكان ما من الجهة العلوية لذهنك ، فأنت قد رأيتها هناك منذ يوم واحد فقط حين كنت تبحث عن شئ آخر .. لكن أين هى الآن؟ وتشرع فى جرد كل مافى ذهنك من معلومات صغيرة : المعارك ، الحروب ، الثورات ، الأنظمة الحكومية .. لكن أين يوجد ذلك المدعو «هَسْ» ؟ وتجد نفسك مندهشاً للغاية من أن كل الأشياء التى تعرفها لاوجود لها على ورقة الأسئلة! .. وفى نهاية المطاف ، وبدافع من اليأس ، تتناول السلة وتقلب كل مابها لتجد ذلك الرجل «هَسْ» قابعاً فى أحد الأركان ومستغرقاً فى تفكيره الخاص دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن ذلك القدر الكبير من الإزعاج الذى سببه لك !

وفى هذا الوقت بالذات ينطلق صوت المراقب ليخطرك بأن زمن الامتحان قد انقضى وحان موعد تسليم ورقة الإجابة .. وبكل مشاعر اليأس والاشمئزاز تترك ورقة الإجابة وتعود إلى منزلك ورأسك ملئ بخطط ثورية تهدف إلى القضاء على حق الأساتذة

فى وضع أسئلة لايقتنع بها الممتحنون !

تخطر ببالى الآن فكرة أن ماقلته خلال الصفحتين أو الثلاث السابقة سوف يثير ضحك الناس منى ، لكن كلماتى تلك تصف فى حقيقة الأمر وبكل دقة ذلك العالم الحافل بالأفكار المتزاحمة والمتدافعة فى تسارع ، الذى أعيش فيه ولاأملك تبديل واقعه. وماقلته إنما هو بالفعل أسلوبى فى التعبير عن حقيقة أن أفكارى عن الكلية قد تغيرت افحين كان وجودى بكلية رادكليف مجرد أمل براودنى وأمر يخص المستقبل ، كان ذلك الوجود يبدو لى ضرباً من الخيال كأنه حلم ساحر جميل .. والآن برغم أن التحاقى بالكلية فقد خصائصه الرائعة تلك ، فقد قُدِّر لى أن أتعلم الكثير من الأشياء التى لم يكن من الميسور أن أعرفها لولا إقدامى على تجربة الالتحاق بالجامعة . ومن تلك المعارف «علم الصبر» الثمين الذى يعلمنا ضرورة التعامل مع التعليم على نفس النحو الذى نتعامل به مع نزهة فى الريف ؛ إذ ينبغى لنا أن نتروى وألانمضى على عجل ، وأن نفتح عقولنا من أجل تلقى المؤثرات من كل نوع . فمثل هذه المعرفة تثرى النفوس بفكر عميق .. وقد قال أحد الحكماء «المعرفة قوة» ، أما بالنسبة لى فإن المعرفة«بهجة وسعادة» لأنك حين تكون لديك المعرفة تصبح قادراً على التمييز بين ماهو حقيقى وماهو زائف ، وبين ماهو سام

وماهو وضيع . وحين يكون المرء على دراية بأفكار ومآثر الناس عبر مختلف عصور التاريخ ومختلف المواقع الجغرافية فإنه يستشعر التعاطف والقربى نحو الإنسان على مر القرون . وعلى النقيض من ذلك يكون المرء قد أصيب بالصمم تجاه الحياة بأسرها حين يفقد الإحساس بأن هناك شيئاً سامياً وراء كل مايحاول الانسان أن يفعله ويسعى إلى تحقيقه..

****

الفصل الحادى عشر

رويت لكم الكثير عن أحداث حياتى ، لكننى حتى الآن لم أذكر لكم إلى أى حد اعتمدت على الكتب في مسيرة حياتى ، ليس فقط من أجل المتعة واكتساب الحكمة وبعد الرؤية وهو ما تضفيه الكتب على كل من يقرأها ، ولكن أيضاً لكونها المصدر الوحيد المتوافر للحصول على المعلومات التى يمكن للآخرين تحصيلها عن طريق أعينهم وآذانهم . فالكتب بحق قد لعبت فى تعليمى دوراً كبيراً للغاية أكثر مما تلعب عادة فى تعليم الآخرين .. لذلك سأحاول عبر الصفحات التالية أن أستعيد مع أصدقائى القراء ذكريات القراءة ابتداء من الوقت الذى شرعت فيه فى قراءة الكتب لأول مرة فى حياتى .

قرأت أول قصة كاملة فى حياتى فى شهر مايو من عام ١٨٨٧ وكنت وقتها فى السابعة من عمرى ، ومنذ ذلك اليوم وحتى الآن داومت على قراءة كل مايقع بين يدى من كتب . وكما ذكرت قبلاً فإننى لم أكن أستذكر دروسى بانتظام خلال السنوات الأولى من شروعى فى التعليم ، ولم أكن أيضاً أتبع فى قراءاتى أية قواعد محددة ، ففى أول الأمر كان لدىّ بعض كتب المطالعة مطبوعة بالحروف البارزة (حروف برايل) ، وهذه كانت عبارة عن كتب

للمبتدئين قوامها مجموعة من قصص للأطفال وكتاب عن الأرض اسمه « عالمنا » وأعتقد أن هذا هو كل ما هنالك ، لكننى كنت أقرأ تلك الكتب وأعاود قراءتها مرة إثر مرة إلى حد صارت معه الكلمات مطموسة غير واضحة المعالم على النحو الذى حال بينى وبين فهمها . وفى بعض الأحيان كانت الآنسة سوليفان تقرأ لى وتتهجى على يدى القصص القصيرة والقصائد التى كانت تعلم أن باستطاعتى فهمها ، لكننى كنت أفضل أن أقرأ بنفسى لأننى كنت أحب أن أعاود مرات ومرات قراءة الموضوعات التى أسعد بها !

أما بداية انطلاقى وتوسعى فى القراءة فتعود إلى فترة زيارتنا الأولى لمدينة بوسطن ، إذ كان مسموحاً لى أن أقضى جزءاً من كل يوم فى مكتبة مؤسسة بركنز للمكفوفين وكنت أتنقل بين دواليب الكتب وأنتقى منها كل كتاب يثير اهتمامى ، ثم أعكف على القراءة بشغف حتى برغم أننى كنت فى بعض الأحيان لا أفهم سوى كلمة واحدة أو كلمتين فى كل صفحة .كانت الكلمات ذاتها تثير اهتمامى ، ولم أكن أبذل أية محاولات واعية لتذكر ماكنت أقرأ ، لكن من الواضح أن تلك القراءات كان لها تأثيرها علىّ ، فالكلمات والجمل الكاملة كانت تبقى فى ذاكرتى حتى لو لم أكن أفهم معانيها . وبعد ذلك حينما بدأت فى تعلم الحديث والكتابة كنت أستخدم تلك الكلمات والجمل

بصورة طبيعية إلى حد كان أصدقائى يدهشون معه من وفرة حصيلة الكلمات التى اكتسبتها . ولابد أننى قرأت أجزاءً من الكثير من الكتب (ولدىّ مايدعونى للاعتقاد أننى كنت فى تلك الأيام المبكرة لا أكمل أبداً قراءة أى شئ) ، وكذلك عدداً كبيراً من القصائد برغم أنى لم أفهم منها إلا أقل القليل وبعد ذلك وقعت على كتاب « اللورد فونتلروى الصغير » الذى كان أول كتاب على جانب من الأهمية أقرأه بفهم حقيقى .

وفى أحد الأيام وجدتنى الآنسة سوليفان قابعة فى أحد أركان المكتبة أقرأ كتاب « الرسالة القرمزية » وكنت وقتها فى حوالى الثامنة من عمرى ، وأذكر أنها سألتنى ما إذا كنت أحببت «بيرل» وهى الفتاة الصغيرة فى تلك القصة ، كما أذكر أيضاً أنها راحت تشرح لى معانى بعض الكلمات التى لم أفهمها ، ثم أخبرتنى أن لديها قصة جميلة تدور أحداثها عن ولد صغير وعبرت لى عن ثقتها فى أننى سأحبها أكثر من قصة « الرسالة القرمزية » . كان عنوان القصة « اللورد فونتلروى الصغير » ووعدتنى الآنسة سوليفان بأن تقرأها لى فى الصيف التالى ، لكننا لم نبدأ قراءة القصة إلا فى شهر أغسطس . وكانت الأسابيع الأولى من إقامتى على شاطىء البحر مليئة بالاكتشافات والإشارة إلى حد أننى نسيت معه وجود الكتب ، وقد ذهبت معلمتى لزيارة بعض الأصدقاء فى

بوسطن وتركتنى لوقت قصير .وحين عادت الأنسة سوليفان كان أول شىء نفعله تقريباً هو البدء بقراءة قصة « اللورد فونتلروى الصغير » ، ومازلت أذكر بوضوح الوقت والمكان الذى قرأنا فيه الفصول الأولى من كتاب الأطفال الشهير هذا .. كان ذلك فى عصر يوم دافئ من أيام شهر أغسطس ، وكنا نجلس معاً فى مقعد متأرجح بين شجرتى صنوبر غير بعيد عن المنزل ، وقد أسرعنا يومها بالفراغ من غسل الأطباق عقب الغداء لكى نوفر شطراً كبيراً من وقت العصر لقراءة القصة . وبينماكنا نهرع فى طريقنا بين الأعشاب الطويلة متجهين للمقعد الموجود خارج المنزل إذا بحشرات الجنادب تتقافز حولنا[1] وتتعلق بملابسنا ، وأتذكر أن معلمتى أصرت على التقاط تلك الحشرات جميعها والتخلص منها قبل أن نجلس ، الأمر الذى تراءى لى أنه تضييع للوقت . وكان المقعد مغطى بأوراق الصنوبر الإبرية لأنه لم يكن مستخدماً طوال الوقت الذى قضته معلمتى بعيداً ، وكانت أشعة الشمس الدافئة تسطع على أشجار الصنوبر فتعمل على تَضَوّعْ روائحها الجميلة ، كما كانت فى الجو أيضاً آثار من رائحة الملح قادمة من

(١) الجنادب Grasshoppers : أنواع كثيرة من الحشرات تتدرج ألوانها مابين الأخضر والبنى ، وتتميز بأن أرجلها الخلفية متحورة بصورة تساعد على الحركة قفزاً ، وتعيش الجنادب بين الحشائش والنباتات قليلة الارتفاع ، حيث تُشاهَد وهى تقفز بينها بأعداد كبيرة ، لذلك تعرف أيضا باسم « النطاطات» . والبعض يظن الجنادب «جراداً صغيراً» !

البحر . وقبل أن نبدأ فى قراءة القصة شرحت لى الآنسة سوليفان الأمور التى أدْرَكَتْ أننى لن أفهمها ، ومضت أيضاً ونحن نقرأ تشرح لى الكلمات غير المألوفة . وفى أول الأمر كان هناك قدر كبير من الكلمات التى لا أعرفها وكانت القراءة غالبا متقطعة ، لكننى بمجرد أن تفهمت جيداً حقيقة الموقف القصصى صرت أكثر شغفاً بأحداث القصة من التركيز على الكلمات ، لدرجة أنى كنت أنصت بصبر نافذ إلى الإيضاحات التى كانت الآنسة سوليفان تشعر أنها ضرورية وحين أُرْهِقَتْ أصابع الأنسة سوليفان من العمل ولم تعد قادرة على هجاء المزيد من الكلمات ، شعرت لأول مرة فى حياتى بقيمة مافقدته حينما فقدت بصرى ! وقد أمسكت الكتاب بين يدى وحاولت أن أتحسس الحروف ، ولن أنسى أبداً ماحييت كم كانت رغبتى قوية فى ذلك اليوم فى أن أكون قادرة على قراءة الكتاب بنفسى .وفيما بعد وبناء على إلحاحى فى الطلب رتب المستر أناجنوس مسألة كتابة هذه القصة بحروف بارزة ، ومضيت أقرأها مراراً وتكراراً حتى انطبعت فى ذاكرتى تماما . طوال سنى طفولتى كانت قصة « اللورد فونتلروى الصغير » رفيقتى ومؤنستى اللطيفة والأثيرة إلى نفسى . إننى أذكر هذه التفاصيل برغم مافى ذلك من مخاطرة أن أثير سأم القارئ ، لأن قراءتى لهذا الكتاب كانت أمراً مختلفاً عن كل القرارات الأخرى التى تيسرت لى من قبل . أستطيع أن أؤرخ اهتمامى

الحقيقى بالكتب ابتداء من مطالعتى لقصة « اللورد فونتلروى الصغير » ، وبعدها قرأت فى العامين التاليين الكثير من الكتب فى منزلنا وفى زياراتنا لمدينة بوسطن ، ولاأستطيع أن أتذكر الآن ماذا كانت تلك الكتب جميعاً أو وفقاً لأى نظام قرأتها ، لكنى أتذكر أنه كان من بينها الكتب التالية : « أبطال الإغريق » ، و «خرافات لافونتين» ، و « كتاب العجائب لهوثورن » ، و « قصص من التوراة» ، و«قصص من شكسبير للامب» ، و « تاريخ إنجلترا للأطفال لديكنز» ، و « ألف ليلة وليلة »[٢] ، و «عائلة روبنسون السويسرية» ، و « فتوح الآباء الرواد » ، و « روبنسون كروزو » ، و« نساء صغيرات » ، و « هايدى » .. والأخيرة قصة جميلة قرأتها بعد ذلك باللغة الألمانية [٣] . وكنت أقرأ تلك الكتب بين أوقات المذاكرة واللعب ، وكانت سعادتى بالقراءة تتضاعف كلما قرأت المزيد . لكننى لم أقرأها قراءة دراسية ، ولم أنتبه إلى ما إذا كانت مصاغة بأساليب تعبير جيدة أم لا ، كما لم أفكر مطلقاً فى الأسلوب الأدبى أوفيمن ألفوها . لقد وضع هؤلاء المؤلفون كنوزهم عند أقدامى ، وقد قبلتها كما نقبل عادة أشعة الشمس أو محبة أصدقائنا . وأحببت كذلك قصة « نساء صغيرات » لأنها

(٢) تُرْجِمَتْ قصص «ألف ليلة وليلة» العربية إلى كل اللغات الكبرى وحازت إعجابَ الأجيال وأثرت كثيراً فى الآداب الأوربية .

(٣) وهى اللغة الأصلية التى كتبت بها .

جعلتنى أشعر بقربى من الأولاد والبنات المتمتعين بالقدرة على السمع والبصر ، إذ كنت من عدة أوجه مقطوعة عن حياة الناس ، الأمر الذى حتم على الانغماس فى مطالعة صفحات الكتب لأتسقط منها أخبار العالم المحيط بكيانى الذاتى !

ولم يكن لدى اهتمام خاص بكتاب « فتوح الآدباء الرواد » وأعتقد أننى لم أكمل قراءته ، ولم أهتم أيضاً بكتاب « خرافات لافونتين »(٤) ، وقد قرأت الخرافات أول الأمر فى ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية ولم أستمتع بها كثيراً ، وبعد ذلك قرأت الكتاب مرة أخرى باللغة الفرنسية وبقى الحال على ماهو عليه من عدم الإعجاب كثيراً به بالرغم من سلاسة اللغة الفرنسية المستخدمة فى الكتاب وبالرغم أيضاً من إجادتى لتلك اللغة . ولست أعلم لماذا كان ذلك ، لكن القصص التى تتحدث فيها الحيوانات وتتصرف مثل البشر لم ترقْ لى قط بل كنت أتضايق منها بشدة ، فقد كنت أركز تفكيرى على الصور الغريبة التى تبدو بها تلك الحيوانات وأنسى المغزى الأخلاقى الذى من المفترض أن هذه القصص تعلمه لنا . وأتوقف مرة أخرى عند « لافونتين » لأؤكد أنه لايروق كثيراً لحسنا الأخلاقى المرهف ، فذروة الفضائل عنده تبدو هى العقل وحب الذات ، فالخط الفكرى الذى يبدو واضحاً فى كل خرافات لافونتين هو أن الوازع الأخلاقى لدى الإنسان

(٤) لافونتين La Fontaine (١٦٢١-١٦٩٥) : شاعر فرنسى .

يتولد من حب الذات ، ويرى لافونتين أن حب الذات إذا وجهه العقل والمنطق فلابد من أن تتحقق به السعادة . والآن وبقدر مايمكننى الحكم على هذه المسألة أستطيع أن أقرر أن حب الذات هو أصل كل الشرور(٥) ، لكن من المحتمل بالطبع أن أكون مخطئة فى هذا الرأى طالما أن «لافونتين» كانت لديه فرص أعظم فى ملاحظة طباع البشر أكثر مما أُتيح لى . ولست أعترض كثيراً على الخرافات التى تلوح من خلال فكر لافونتين بأن الطبيعة البشرية شريرة ، بقدر ماأعترض على الخرافات التى تقوم فيها الحيوانات بتعليمنا وتذكرتنا ببعض الحقائق المهمة(٦) .

ومع ذلك فأنا أحب « كتاب الأدغال » وكتاب « الحيوانات البرية كما عرفتها » ، ذلك أننى أشعر باهتمام كبير نحو الحيوانات ذاتها ، أى من حيث هى حيوانات حقيقية وليست حيوانات مزعومة القصد منها تمثيل البشر . والمرء لايسعه إلا أن

(٥) فى الواقع كل من «لافونتين» و«هيلين كيلر» على حق ؛ فحب الذات إذا كان فى الحدود المعقولة يصبح قوة إيجابية تدفع الإنسان للعمل والإبداع والتنافس الشريف مع الآخرين فيتقدم الأفراد ويرتقون ويرتقى معهم المجتمع ، أما إذا زاد حب الذات على الحد المعقول فإنه يجعل الإنسان جشعاً شريراً ويحثه على ارتكاب أبشع الجرائم من أجل تحقيق طموحه المريض .

(٦) هذا رأى هيلين كيلر الخاص والنابع من تكوينها الفريد وظروفها غير العادية ؛ لكن قصص الحيوان لون قديم محبب من ألوان الأدب والفكر ، وقد عرفنا فى أدبنا العربى كتاب «كليلة ودمنة» الذى يشتمل على الكثير من قصص الحيوان التى تتضمن الكثير من المغزى والحكم والمواعظ .

يتعاطف وينفعل بكل مايكتنف عالم الحيوان من حب وكراهية ، وينتابه الضحك من جراء الأشياء الظريفة الضاحكة التى تحدث بين الحيوانات وبعضها ، ويبكى من أجل المآسى والأمور المحزنة التى تقع بينها .. وحين يكون فى الأمر مغزى أخلاقى فإنه يقدم بطريقة غير مباشرة لانكاد ندركها .

كان عقلى دائماً يكن تعاطفاً وجدانياً للعالم القديم (عالم التاريخ القديم) ، وطالما كانت بلاد الإغريق تثير اهتمامى بصفة خاصة ، وطالما كنت أتخيل أبطال الملاحم الإغريقية مازالوا يدبون على الأرض ويتحدثون وجهاً لوجه إلى سائر البشر ، وكنت أكن فى قلبى حباً وإعزازاً كبيراً لأولئك الذين أُعْجِبت بهم أكثر من غيرهم . وملحمة « الإلياذة »[7] .. هى التى جعلتنى أحب بلاد الإغريق حباً جما ، كما كنت أشعر بألفة خاصة نحو قصة « طروادة »[8] .. قبل أن أقرأ « الإلياذة » فى لغتها اليونانية . ولهذا

(٧)/(٨) الإلياذة Iliad إحدى ملحمتين شعريتين نظمهما الشاعر اليونانى الضرير هوميروس Homer فى القرن الثامن قبل الميلاد ، والأخرى هى الأوديسة Odyssey ، وكلتاهما تتغنى ببطولات ومآثر أبطال اليونان القدامى ؛ فالإلياذة تروى قصة الحصار اليونانى لقلعة طروادة الواقعة على ساحل آسيا الصغرى ووقائع المعارك التى دارت بين الطرواديين واليونان فى إطار هذا الحصار ، والأوديسة تروى الأحداث العجيبة التى صادفت «أوديسيوس» أحد أبطال اليونان أثناء رحلة عودته بحراً من طروادة إلى اليونان والمغامرات التى قام بها طوال عشر سنوات ضل فيها طريق العودة بين الجزر والبحار .

السبب لم أجد عناءً كبيراً فى استيعاب الكلمات اليونانية بعد أن تعلمت القليل من قواعد اللغة اليونانية . وأؤكد هنا على أن الطريقة الأفضل لفهم القصائد الشعرية العظيمة ومنها الملاحم ، سواء كانت مكتوبة بالإنجليزية أم باليونانية ، تتلخص فى قراءتها بقلب متدفق بالحب والحماس .. وليت الأساتذة الذين اعتادوا على وضع الشروح والتعليقات المسهبة على الأعمال الشعرية العظيمة يعرفون هذه الحقيقة ! .. فليس من المحتم أن يكون المرء على دراية بمعنى كل كلمة لكى يفهم ويستشعر الإعجاب نحو قصيدة رائعة تأخذ بمجامع القلوب . وأنا أدرك جيداً أن أساتذتى المتخصصين يجدون دائماً قدراً أكبر من ثروات المعانى والأفكار أكثر مما أجده فى الإلياذة ، إلا أنى قانعة بما أجده عادة ولا أرغب فى المزيد ، وأنا أيضاً راضية بأن يكون الآخرون أكثر منى حكمة وعلماً .. ومع ذلك فمتعتهم بتلك الملحمة لاتقاس برغم سعة معارفهم بمتعتى الفريدة بها[9] ، فحين أقرأ أكثر الأجزاء روعة من الإلياذة أشعر بأنها ترفعنى كثيراً فوق ظروف حياتى الصعبة ، وتجعلنى أنسى تماماً كل معوقاتى البدنية بصورة أشعر معها كما لو كنت أملك كل ما فى العالم من الحرية والانطلاق .

(٩) لهيلين كيلر كل الحق فى أن تقول ذلك لأن القادرين على السمع والبصر لديهم الكثير من وسائل المتعة الأخرى غير القراءة . ثم إن قراءة ماتحفل به الإلياذة من مآثر ومواقف بطولية وإنسانية تهز النفس هزاً وتتلاعب بالمشاعر بكل عنف .

وقد أعجبت بالإنيادة[١٠] بدرجة أقل ، لكننى أحببتها أيضاً ، وقد قرأتها عدداً كبيراً من المرات بدون الاستعانة بالشروح والتعليقات أو القواميس ، وكنت دائما أحب أن أترجم الأجزاء التى أوثرها عن غيرها . فالتصوير بالكلمات عند « فرجيل » يبدو رائعا فى بعض الأحيان ، لكن الأبطال والرجال عنده لايبدون أشخاصاً حقيقيين كما هو الحال عند « هوميروس » . ففرجيل رقيق وبديع كجماد جميل يتبدى فى ضوء القمر ، فى حين أن هوميروس يبدو كفتى وسيم غض الشباب يستعرض نفسه فى ضوء الشمس بينما الهواء يعبث بشعره .

وقد أحببت شكسبير منذ عرفت حبّ الكتب ، وليس بمقدورى أن أذكر على وجه الدقة متى بدأت أقرأ كتاب لامب «قصص شكسبير» ، وإن كنت أذكر أننى قرأته أول الأمر بعقلية وفهم وإعجاب الطفل . ويبدو لى أن مؤلف شكسبير « ماكبث» كانت الأكثر تأثيراً فى نفسى ، وقد ظللت أتذكر كل تفاصيل القصة بمجرد أن قرأتها ذات مرة ، ومكثت لفترة طويلة من الزمن أحلم بالشخصيات الشريرة التى تشتمل عليها ، وكانت الملكة

(١٠) الإنيادة Aeneid : ملحمة شعرية نظمها باللغة اللاتينية الشاعر الرومانى «فرجيل Virgil» فى القرن الأول الميلادى . وقد جاءت على غرار الإلياذة والأوديسة ولتكون مكملة لهما ؛ فهى تتحدث عن رحلات الأمير الطروادى «إينياس» وعن تأسيس مدينة روما .

الحزينة تبدو لى كشخص حقيقى ، وكنت أتخيلها ببقعة الدم على يدها الصغيرة البيضاء .

وبعد « ماكبث » سرعان ماقرأت « الملك لير »[١١] ، ولن أنسى ماحييت مشاعر الخوف التى انتابتنى عندما وصلت إلى المشهد الذى سُملَت فيه عينا جلوشستر ، فساعتها تجمدت أصابعى ورفضت أن تطيعنى وتتحرك ، وقد جلست لفترة طويلة وراح قلبى يدق دقات سريعة وشعرت بكراهية شديدة هى أقصى مايستطيعه الطفل من كراهية .



البطل الإغريقى «أخيل» يجهز على البطل الطروادى «هكتور» مشهد من ملحمة «الإلياذة» الإغريقية التى كانت هيلين كيلر مفتونة بها

(١١) مؤلف «الملك لير» أيضاً من تأليف الشاعر «وليام شكسبير».

ومن الأمور الغريبة أن قراءتى الأولى لشكسبير خلفت لى قدراً كبيراً من الذكريات الأليمة . أما المؤلفات الرقيقة الرائعة التى أفضلها الآن فلا يبدو أننى تأثرت بها أول الأمر ، ربما لأنها تعكس البهجة وضياء الشمس وهى الأمور المحببة المعتادة فى عالم الطفولة.

وقد داومت منذ ذلك الوقت على قراءة أعمال شكسبير مراراً وتكراراً ومازلت أذكر أجزاء منها أحفظها عن ظهر قلب ، وإن كنت لاأستطيع أن أقرر أيها أفضل عندى . فمتعتي بتلك الأعمال تتوقف على كيفية إحساسى بها ، كما أن الأشعار والقصائد هى فى رأيى حافلة بالروعة والبهجة كالأعمال الفنية تماماً . لكن وبرغم كل حبى لشكسبير فإنى أرى أنه من الصعب للغاية فى بعض الأحيان أن تجد لأبياته كل المعانى التى ينسبها إليها أولئك الأساتذة المتخصصون ! فلطالما حاولت أن أتذكر كل ماقالوه، لكن محاولاتى انتهت بى إلى الشعور بالإحباط وأسفرت عن توصلى إلى اتفاق غير معلن مع نفسى بألا أحاول ذلك مرة أخرى . إلا إنى عدت وكسرت هذا الاتفاق حينما كنت أدرس شكسبير تحت إشراف البروفيسور « كيتردج » . وأعرف أن هناك الكثير من الأمور فى أدب شكسبير وفى العالم من حولى لايمكننى فهمها ، ويسعدنى للغاية أن أرى نقاباً بعد نقاب يرتفع تدريجياً من أمام عينى مما يتيح لى أن أرى أفكاراً جديدة وجمالاً جديداً .

وفى المرتبة التالية بعد الشعر أحببت التاريخ ، وقرأت كل عمل يتعلق بالتاريخ أمكننى الوصول إليه . وإذا كان لى أن أذكر أسماء بعض تلك الأعمال فيمكننى القول بأننى قرأت « تاريخ الشعب الإنجليزى » لجرين ، و« تاريخ أوربا » لفريمان ، و« العصور الوسطى » لإمرتون . أما أول كتاب جعلنى أشعر حقاً بقيمة التاريخ فهو كتاب « تاريخ العالم » لسوينتون الذى تلقيته هدية يوم عيد ميلادى الثالث عشر . وأعلم الآن أن هذا الكتاب لايعد فى الوقت الحالى كتاباً متميزاً ، لكننى احتفظت به ضمن كنوزى . ومن هذا الكتاب عرفت كيف انتشرت الأجناس البشرية من أرض إلى أرض وأخذت فى بناء المدن العظيمة ، وكيف قام عدد محدود من الحكام بغزو عدد كبير من البلاد وقهر كل ما اعترضهم وتغيير مسار حياة ملايين البشر .وعرفت كيف عرفت الأمم المختلفة الفنون أول ماعرفتها ، وكيف كانت الحضارة تأفل فى مكان ثم تبزغ من جديد فى مكان آخر ، وعرفت أيضاً كيف يمكن للتعليم والحرية واحترام حقوق الآخرين أن تسهم فى إنقاذ العالم بأكمله.

ومن خلال قراءاتى أثناء المرحلة الجامعية توفرت على دراسة الأدبين الألمانى والفرنسى ، فوجدت الأدب الألمانى يضع القوة قبل الجمال والحقيقة قبل العرف ،فى الحياة وفى الأدب ، واكتشفت أن هناك قدراً هائلاً من الجهد فى كل مايفعله

الألماني.. فهو مثلاً حين يتكلم لايكون ذلك بغرض جعل الآخرين يشعرون بمشاعره ، بل لأنه يشعر بأن قلبه سينفجر إذا لم يتكلم .

وللأدب الألماني أيضاً سجله الرائع الذى أحبه ، وإن كان أفضل ما أحبه فيه أنه يعترف بقدرة المرأة على التضحية ، فتلك الفكرة لها وجودها فى كل أعمال الأدب الألماني، وأفضل تعبير عنها نجده فى قصة جوته « فاوست »[١٢] .

وأفضل الكتاب الفرنسيين بالنسبة لى هم « موليير »[١٣] ، و«راسين [١٤] ، وهناك لمحات تعجبنى فى « بلزاك »[١٥] ، كما أن بعض كتابات « ميريميه »[١٦] تبدو لى أشبه بريح قوية تهب من داخل البحر . وتبدو لى أعمال « ألفريد دو موسيه » مستحيلة[١٧] ! كما إننى معجبة بـ « فيكتور هوجو»[١٨] وإن لم

(١٢) الشاعر الألماني «جوته Goethe» (١٧٤٩-١٨٣٢) .

(١٣) موليير Moliere (١٦٢٢-١٦٧٣) : كاتب يُعَدّ من أعظم كتاب الكوميديا فى المسرح الفرنسى.

(١٤) راسين Racine (١٦٣٩-١٦٩٩) كاتب فرنسى.

(١٥) بلزاك Balzac (١٧٩٩-١٨٥٠) كاتب روائى فرنسى.

(١٦) ميريميه Merimee (١٨٠٣-١٨٧٠) كاتب روائى فرنسى.

(١٧) ألفريد دوموسيه Alfred de Musset (١٨١٠-١٨٥٧) شاعر وكاتب فرنسى.

(١٨) فيكتور هوجو Victor Hugo (١٨٠٢-١٨٨٥) : شاعر وكاتب روائى فرنسى.

تكن أعماله من الروائع المحببة إلى نفسى . ومع ذلك فكل من هوجو وجوته وشيللر[١٩] وكل الشعراء العظام من كل الأمم العظيمة هم مترجمون للمعانى الرائعة وأنا أقتفى أثرهم بكل إخلاص إلى حيث يوجد الجمال والحق والخير .

أخشى أن أكون قد أسرفت فى الكتابة عن أصدقائى من «الكتب والكتاب » وإن كنت فى واقع الأمر لم أذكر سوى بعض الأشياء فقط عن المؤلفين الذين أحب أعمالهم ، الأمر الذى قد يدعو البعض إلى الاعتقاد بأن دائرة أصدقائى من الكتب محدودة للغاية ، وهذا غير صحيح ، فأنا أحب الكثير من الكتاب لأسباب عديدة . مثلاً أحب « كارلايل »[٢٠] إعجاباً بقوته وجرأته فى زجر أولئك الذين يتظاهرون بغير حقيقتهم ، وأحب « وردزورث»[٢١] وأشعر بالكثير من البهجة مع مفاجآت « هود »[٢٢]، ومع شذى

(١٩) شيللر Schiller (١٧٥٩-١٨٠٥) : كاتب وشاعر ألمانى .

(٢٠) توماس كارلايل Thomas Carlyle (١٧٩٥-١٨٨١) : مؤرخ وكاتب سكوتلندى منصف متفتح العقل ، ونحن المسلمين نكن له كل الاحترام لدفاعه عن رسولنا الكريم ونفيه عنه تهمة الكذب والإدعاء التى رماه بها بعض الجهلة والمغرضين من المستشرقين . ومن أقواله فى كتابه «الأبطال» الذى تناول فيه شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم) مايلى: «.. هل رأيتم رجلاً كاذباً يستطيع أن يخلق ديناً ويتعهده بالنشر بهذه الصورة؟»

(٢١) ويليام وردزورث William Wordsworth (١٧٧٠-١٨٥٠) : شاعر بريطانى كبير .

(٢٢) توماس هود Thomas Hood (١٧٩٩-١٨٤٥) : شاعر بريطانى .

الزنابق والورود فى قصائد « هيريك »[٢٣] . وأحب « ويتيير »[٢٤] لشغفه بالحياة وإيثاره للأخلاق الحميدة .. وكان لى حظ التعرف بهذا الأخير ، وحين أتذكر صداقتى معه يضاعف ذلك من استمتاعى بقراءة قصائده ! وأحب كذلك « مارك توين»[٢٥] ، ومن الذى لا يحب «مارك توين» ؟ فقد جعله الله سبحانه وتعالى ذكيا ! كما أحب ولترسكوت [٢٦] لحيويته وصدقه . وأعجب بكل الكتاب من أمثال لوويل [٢٧] الذى يرى الخير فى كل العالم المحيط به .

والأدب باختصار شديد هو اليوتوبيا (المدينة الفاضلة)[٢٨]

(٢٣) روبرت هيريك Robert Herrick (١٥٩١-١٦٧٤) : شاعر إنجليزى .

(٢٤) چون ويتيار John Whittier (١٨٠٧-١٨٩٢) : شاعر أمريكى.

(٢٥) مارك توين Mark Twain (١٨٣٥-١٩١٠): روائى وكاتب صحفى وأعظم كاتب ساخر عرفته أمريكا ، وسوف نحاول تقديم رائعته «توم سوير» فى إطار هذه السلسلة .

(٢٦) السير وولترسكوت Sir Walter Scott (١٧٧١-١٨٣٢) : كاتب روائى سكوتلندى .

(٢٧) چيمس لوويل James Lowell (١٨١٩-١٨٩١): شاعر وناقد ودبلوماسى أمريكى.

(٢٨) اليوتوبيا : دولة مثالية خيالية افترض الفيلسوف والسياسى البريطانى توماس مور Thomas More وجودها وألف عنها كتابه الرائع «يوتوبيا Utopia» عام١٥١٦ ، والذى تضمن الكثير من أفكاره السياسية والاجتماعية . وتلتقى فكرة اليوتوبيا بفكرة «المدينة الفاضلة» التى عالجها المفكر المسلم«الفارابى» ، لذلك كثيراً مانترجم اللفظ «يوتوبيا» إلى «المدينة الفاضلة» .

بالنسبة لى ، ففى عالم الأدب ليس هناك فرق بين أن أكون مبصرة قادرة على السمع وبين أن أكون كفيفة صماء .. فأصدقائى من الكتب باستطاعتهم دائماً أن يتحدثوا معى بكل حرية وبدون تفرقة أو تمييز !

****

الفصل الثانى عشر

آمل ألا يخرج أصدقائى القراء من مطالعتهم للفصل السابق بانطباع أن القراءة هى هوايتى ووسيلة الترفيه الوحيدة بالنسبة لى ، إذ كانت لدى فى واقع الأمر هوايات ووسائل أخرى للترفيه وإدخال البهجة إلى نفسى .

وقد تحدثت مسبقاً عن حبى للريف والتريض خارج المنزل ، ويجدر بالذكر الآن أنى تعلمت التجديف والسباحة وأنا بعد طفلة صغيرة للغاية ،وكنت شغوفة بهما إلى درجة أنى كنت إبان الصيف الذى قضيته فى رينتهام بولاية ماساتشوستس أعيش تقريباً فى قاربى ، وقد اعتدت أن أصحب أصدقائى حين يزوروننى لقضاء بعض الوقت فى التجديف .وبالطبع لم يكن باستطاعتى توجيه القارب بطريقة جيدة ، فعادة ماكان شخص آخر يتولى عملية التوجيه بينما أقوم أنا بالتجديف .

ومع ذلك كنت فى بعض الأحيان أحاول على سبيل اللهو والمرح أن أقوم بالتوجيه عن طريق تشمم رائحة الأعشاب المائية والزنابق والاستدلال بالشجيرات النامية على الشاطىء ! ونظراً لظروفى البصرية كنت أستعمل مجاديف ذات سيور جلدية تعمل على حفظها فى موضعها الصحيح .

وكنت أعرف من مقاومة الماء كيف أضع المجاديف فى موضعها المناسب ، وحين كنت أجدف ضد التيار كان بوسعى إدراك هذه الحقيقة من خلال إحساسى بمدى مقاومة الماء . بل وصل بى الشغف بالتجديف حداً كنت معه أحب التجديف ضد الريح والأمواج ، فالأمر يصبح فى غاية الإثارة حينما تجعل قاربك الصغير يفعل ماترغب أنت فى فعله ، وقد كنت أحب أن أشعر بانسياب القارب بخفة فوق صفحة الماء ، وأن أشعر أيضاً بالصعود والهبوط المتواصل الذى يحدث للقارب بفعل حركات الأمواج .

كما كنت أستمتع بركوب الكانو[1] ، وأعتقد أن القراء سوف يتبسمون متى ذكرت أننى أحب بصفة خاصة الكانو فى الليالى المقمرة .. صحيح أنى لاأستطيع أن أرى القمر صاعداً فى السماء خلف أشجار الصنوبر ومنزلقاً فى يسر ونعومة على صفحة السماء تاركاً وراءه خطاً مضيئاً يشد إليه الأنظار ، ومع ذلك فأنا أدرك وجود القمر وأستطيع وأنا جالسة بين الوسائد ويدى تداعب الماء أن أتخيل جمال هذا المشهد ! وفى بعض الأحيان تنزلق سمكة صغيرة جريئة من بين أصابعى ، وفى أغلب الأحيان تصطدم إحدى زنابق الماء بيدى . وكثيراً ماكنا نخرج من موضع ضيق محاط بالشجيرات أو الصخور إلى موقع عريض مفتوح ، وحينئذ

(١) الكانو canoe : نوع من القوارب يتميز بأنه طويل رفيع ومدبب من طرفيه . ويستخدم فى سباقات القوارب.

كان بمقدورى أن أشعر بالفارق الحادث فى مقدار التيارات الهوائية المحيطة بنا .

أما هوايتى ومسلاتى فهى رياضة الشراع ، وقد زرت فى صيف عام ١٩٠١ منطقة « نوفا سكوشيا » (٢) وهناك أتيحت لى فرصة جيدة للتعرف على المحيط . وقد قضيت أنا والآنسة سوليفان معظم الصيف فى « «هاليفاكس» حيث الميناء رائع ، وكنا نبحر بقارب شراعى إلى الكثير من المواقع القريبة وفى الأمسيات نصبح غالباً على مقربة من السفن الحربية الضخمة الراسية فى سكون ، وكان كل شىء يبدو رائعاً وفى غاية الجمال .. الأمر الذى سأظل أذكره دائما .

وذات يوم خضنا مغامرة مثيرة ؛ إذا كان هناك سباق للقوارب التابعة للسفن الحربية المختلفة يجرى فى الميناء ، وقد ذهبنا فى قارب شراعى ومعنا العديد من القوارب الأخرى لمشاهدة السباق ، وكان البحر هادئاً والمئات من القوارب الشراعية الصغيرة تتحرك هنا وهناك فى أنحاء الميناء . وحين انتهى السباق وشرعنا فى العودة إلى منازلنا لاحظ أحدهم سحابة سوداء تتقدم نحونا من داخل البحر ، وزاد حجم السحابة بالتدريج وازدادت انتشاراً حتى غطت كل السماء ، وبدأت الريح فى الهبوب وتعالت الأمواج ، وراح

(٢) نوفاسكوشيا Nova Scotia : منطقة بشرق كندا تقع على المحيط الأطلسى.

قاربنا الصغير يواجه العاصفة بشجاعة وبدا وأشرعته منشورة كما لو كان يمتطى ظهر الريح . ومضى القارب يهتز بشدة ويعلو ويهبط بينما الأمواج الكبيرة تتقاذفه .. وحتى بعد إنزال الشراع الرئيسى ظلت الريح تدفع بنا من جانب إلى جانب ! .. كان ذلك موقفاً عصيباً جعل قلوبنا واجفة وسريعة الدقات وجعل أيادينا مرتجفة ، لكننا مع ذلك كنا مفعمين بالإثارة دون أن يخالجنا الخوف ، بل كانت الشجاعة تملأ نفوسنا وكنا واثقين من قدرة القبطان على السيطرة على المواقف ؛ فقد تمكن من قبل ولاشك من قيادة السفن عبر الكثير من العواصف وكانت له قبضة ثابتة وأعصاب هادئة وعين بصيرة بالعواقب . وراحت السفن الكبيرة تطلق صفاراتها على سبيل التحية ونحن نمر بجانبها وراح البحارة يهتفون بالتحية والتشجيع لقبطان قاربنا الصغير .. وأخيراً وصلنا إلى البر ونحن نشعر بالبرد والجوع والإرهاق !

قضيت الصيف الماضى فى واحدة من أجمل القرى وأكثرها سحراً وفتنة فى إقليم « نيوإنجلند » وهى رينتهام بولاية ماساتشوستس ، وبهذه القرية ترتبط تقريباً كل ذكريات سعادتى وتعاستى ؛ فلسنوات طويلة كانت المزرعة الحمراء وهى مقر المستر « ج . أ . تشمبرلين » وأسرته – مقراً لإقامتى أيضاً .. وأنا ممتنة للغاية وشاكرة لهؤلاء الأصدقاء الطيبين وللأيام السعيدة التى قضيتها بينهم . لقد كانت الصحبة الحلوة مع أبنائهم تعنى الكثير

والكثير بالنسبة لى ؛ إذ كنت أشارك فى كل رياضاتهم ونزهاتهم عبر الغابات ، وكنت ألعب معهم فى الماء . ونملأنى السعادة والحبور عادة حين أتذكر كيف كان أبناؤهم يتحدثون إلى ، وإلى أى حد كانوا يحبون القصص التى كنت أسردها عليهم . وقد تعلمت من المستر تشمبرلين قدراً كبيراً من المعلومات عن الأشجار وأنواعها وعن الأزهار البرية .

يبدو لى أن كل منا نحن البشر لديه فهم للمشاعر والانطباعات التى خبرتها البشرية منذ فجر عهدها ؛ فكل شخص لديه فى عقله الباطن بعض ذكريات الأرض الخضراء وخرير المياه ، ولايمكن للعمى والصم أن يسلب هذه المنحة الإلهية من البشر .. فهى بمثابة نوع من الحاسة السادسة[٣] ، وهذه الحاسة تجعل الإنسان يرى ويسمع ويشعر فى آن واحد .

كان لدى الكثير من الأشجار التى كنت أحبها وأوثرها فى رينتهام ، ومن تلك الأشجار شجرة سنديان رائعة كانت أثيرة إلى قلبى بصفة خاصة ، وكنت أصحب كل أصدقائى لرؤية ملكة الأشجار هذه . كانت الشجرة تنهض شامخة فوق تل يقع أعلى بحيرة صغيرة ، وكان أولئك الذين يملكون قدراً كبيراً من

(٣) الحواس خمس وهى «السمع والبصر والشم واللمس والذوق» ويفترض البعض وجود حاسة سادسة هى «إدراك المجهول» ، لكنها فى واقع الأمر هبة من الله يهبها لمن يشاء فى الوقت المناسب وليست حاسة ثابتة ودائمة.

الخبرة بالأشجار يقولون :إنها لابد قد مضى عليها فى ذلك الموقع ثمانمائة أو ألف عام ! وكانت لدى شجرة مفضلة أخرى .. شجرة رقيقة وودودة أكثر من السنديانة العملاقة ، تقع بالقرب من بوابة المزرعة الحمراء . وفى عصر أحد الأيام شعرت أثناء هبوب عاصفة عنيفة بشيء ضخم يصطدم بجانب المنزل ، وعرفت حتى قبل أن يخبرونى أن الشجرة قد اقتلعتها الرياح . وقد خرجنا لرؤية تلك البطلة التى سقطت بعد أن صمدت طويلاً فى وجه الكثير من العواصف .. وإذا بالحزن ينتابنى من أجل هذه الضحية البريئة !

يتعين علىّ ألا أنسى أننى كنت أنتوى الكتابة عن الصيف الماضى بصفة خاصة ؛ فبمجرد انتهاء امتحاناتى أسرعت أنا والآنسة سوليفان إلى رينتهام حيث كنا نمتلك منزلاً ريفيا يقع على إحدى البحيرات الثلاث التى تشتهر بها تلك البلدة . ففى هذا المكان كانت أيام الصيف الطويلة المشمسة ملكاً خاصاً لى ، وكنت أنسى معها العمل والكلية والمدينة المليئة بالضوضاء .وفى رينتهام سمعنا بالأحداث المؤسفة التى كانت تقع فى العالم ، لكن هذه الأحداث كانت تبدو لنا بعيدة للغاية عنا ، لذلك لم نهتم بها كثيراً لأننا كنا نتصور أنه سيجيء وقت تتوقف فيه الحروب والقلاقل الأخرى الجارية فى العالم ، أما البحيرات والغابات والحقول المزدانة بالأزهار فسوف تبقى على مر الأيام .

يتعجب أولئك الذين يعتقدون أن كل أحاسيسنا نحن البشر تصل إلينا عبر آذاننا وعيوننا ، من قدرتى على إدراك الفوارق بين المسير فى شوارع المدينة والمسير فى طرق الريف - فيماعدا طبعاً عدم وجود طبقة الأسفلت على الطرق الريفية - وينسى هؤلاء أن جسدى كله حساس للظروف المحيطة بى ؛ فأنا أحس بضجة المدينة من خلال أعصاب وجهى[٤] فلا أشعر بأى تقبل لها . بل إن ضجة وحركة المدينة - وقد لايتصور البعض ذلك - أكثر إيذاء لى مما هى بالنسبة لشخص مبصر وقادر على السمع ، وذلك لأننى لا أستمتع بالمشاهد المتعاقبة والأصوات المتغيرة فى الشوارع المزدحمة الحافلة بالضوضاء كالآخرين .

فى الريف لايرى المرء سوى مشاهد الطبيعة الجميلة ، وفى المدينة يرى الحياة مجرد صراع متواصل ينهمك فيه الكثير من الناس . وقد قمت لمرات عديدة بزيارة الحوارى القذرة الضيقة حيث يعيش الفقراء ، وأستطيع القول أنه مما يثير غضبى وألمى أن يرضى الناس الطيبون بسكنى المنازل الجميلة وبالتمتع بالصحة الطيبة التى تكفل لهم الراحة وتضفى عليهم أمارات الوسامة والأناقة ، بينما هناك أناس آخرون يضطرون للمعيشة فى منازل

(٤) للصخب والضجيج ذبذبات تنتشر موجاتها فى الهواء ويشعر بها الصم على هيئة تنميل خفيف فى وجوههم .. فقد عوضهم الله عن نعمة السمع بأن جعلهم مرهفى الحس أكثر منا.

قذرة مظلمة فتبدو عليهم مظاهر القبح والعيش ويسيطر عليهم الخوف والقلق والإحساس بالذل . ومما يثير غضبى وألمى أيضا أن الأطفال الذين يلعبون فى تلك الحوارى الضيقة ليس لديهم من الملابس ما يكفى لستر عوراتهم وليس لديهم من الطعام مايدفع عنهم غائلة الجوع . وأنت حين تحاول أن تربت عليهم تجدهم يراوغونك ويهربون منك كما لو كانوا يتصورون أنك سوف تؤذيهم . وقد قمت بتحسس أيدى الرجال والنساء فوجدتها خشنة وجافة من أثر التغذية . ولاشك فى أن حياة هؤلاء التعساء عبارة عن سلسلة متصلة من المعاناة، ولاشك أيضاً فى أن هناك فارقاً كبيراً بين الجهود التى يبذلونها والعائد عليهم من جراء بذل تلك الجهود .. فالعائد صغير ضئيل القيمة ! . ومن الغريب حقاً أن الشمس والهواء اللذين نقول عنهما أنهما هبة الله المجانية لكل إنسان ، ليس لهما وجود فى تلك الحوارى الضيقة من المدينة حيث لاتسطع الشمس على الإطلاق ولايعرف النسيم طريقه إليها!.

إن الإنسان يتناسى أخاه الإنسان ثم يتوجه إلى ربه بالدعاء طالباً منه خبز يومه فى حين أن أخاه الإنسان لايملك منه شيئاً .. فياللعجب ، ! . إننى فى واقع الأمر أتمنى أن يهجر الناس المدينة بكل بهائها وفخامتها وبكل ضوضائها وذهبها ليعودوا إلى الغابات والحقول وإلى الحياة البسيطة الصادقة ؛ فحينئذ سوف ينمو

أطفالهم ليصبحوا طوال القامة ومنتصبي العيدان كالأشجار ، ويكتسبوا استقامة الطبع ونقاء السريرة .. ومن المحال ألاتدور بذهني مثل هذه الأفكار حين أعود إلى الريف بعد عام من العمل في المدينة !

كان من دواعي البهجة أن أشعر بالأرض الرخوة تحت قدمي ثانية وأن أسير في الطرق الريفية المليئة بالأعشاب والحشائش والمفضية إلى البرك المحاطة بنباتات السرخس ، حيث كان بوسعي أن أغمس يدي في الماء الجاري أو أن أتسلق منحدراً حجرياً للوصول إلى الحقول الخضراء .

ويجيء في المرتبة التالية بعد التنزه استمتاعي بركوب دراجتي المترادفة[٥] فقد كان شيئاً رائعاً أن أشعر بالريح تلاطم وجهي وبحركة حصاني الحديدي هذا حين ينطلق .. فالاندفاع السريع عبر الهواء يمنحني إحساساً لطيفاً بالقوة والخفة ، والتمرين يجعلني أشعر بالصحة والسعادة . وكان كلبي يصحبني في النزهة وركوب الدراجة أو القارب الشراعي كلما أمكن ذلك . وكان لدي دائماً العديد من الكلاب المختلفة الأنواع ، ولدي في الوقت الحالي كلب من نوع « البِلْتّريار »[٦] ، وهو كلب ينحدر من

(٥) الدراجة المترادفة tamdem bicyche : دراجة مصممة لتسمح بركوب شخصين خلف بعضهما ، ولكل منهما بدال خاص للتبديل.

(٦) البِلْتّريار bullterrier : نوع من الكلاب قصير الأرجل وعريض الصدر ، وهو قبيح الهيئة لكنه معروف بقوته وشجاعته .

سلالة متميزة ، ويتسم بذيل قصير شكله مثير للضحك ، كما كان له أكثر الوجوه مدعاة للضحك بين كل كلاب العالم ! . .

ويبدو أن كلابي تتفهم حقيقة ما لدي من إعاقة وتمكث بالقرب مني كلما كنت منفردة وأنا أحب أساليبها الودودة والطريقة التي تهز بها ذيولها .

وحين اضطر في يوم مطير إلى ملازمة البيت ألجأ عادة إلى تسلية نفسي كما تفعل البنات الأخريات ، فأنا أحب حَبْك الصوف (التريكو) وشغل الإبرة (الكروشيه) . وأقرأ قليلا أو ألعب مع إحدى الصديقات .

وحين يكون هناك أطفال حولي أستمتع باللعب معهم ، وأجد الصحبة الرائعة حتى في أصغر الأطفال سناً ، ومن دواعي سعادتي أن الأطفال بدورهم يحبونني ؛ وهم يقودونني حين أتحرك في المنطقة المحيطة بي ويطلعونني على الأشياء التي تثير اهتمامهم . وصغار الأطفال لايستطيعون بالطبع أن يتحدثوا إلى بالهجاء على أصابعي ، لكنني ألجأ إلى قراءة شفاههم ، وحين أنجح في ذلك يتلمسون عادة طريقة أخرى ليوضحوا لي بها مايقصدون . وفي بعض الأحيان يلتبس عليّ الأمر ويصدر مني تصرف خاطيء فيضحك الطفل ونعود لنفعل الشيء نفسه من جديد . وكثيراً ما أجد نفسي مستغرقة في سرد القصص على الأطفال أو تعليمهم

لعبة جميلة ، وإذا بالوقت يمضى سريعا ً ونحن فى مرح وبهجة وحبور .

ومن دوافع سعادتى أيضا ً زيارة مراكز البحوث ومحال البيع، وربما يتعجب بعض الناس من مقدرتى على التمتع بجمال الأشياء من خلال حاسة اللمس فقط ، وقد يجدون فى ذلك أمراً مستغربا، لكن أناملى حين تتحرك على خطوط ومنحنيات العمل الفنى وتتحسسه يصبح بمقدورها اكتشاف ماأودعه الفنان فى ذلك العمل من أفكار ومشاعر . إننى قادرة على الإحساس بمشاعر الحب أوالكراهية وأمارات النبل أو الشجاعة ، تماماً كما أنا قادرة على الإحساس بكل ذلك فى وجوه الأحياء من البشر الذين يتاح لى أن ألمس وجوههم . وأنا أحب بصفة خاصة رموز أبطال الملاحم الإغريقية ورموز الحيوانات أيضا ً . وفى غرفة مكتبى هناك رمز للشاعر الشاعر اليونانى هوميروس موجود فى موضع يسهل علىّ الوصول إليه وأنا أحفظ موضع كل خط وانحناءة فى ذلك، وأجد الوجه يعبر عن الأسى وعن روح النضال ، وأجد العينين المكفوفتين تبدوان كأنهما تتطلعان إلى الضوء وإلى سماء اليونان اللازوردية[٨] ، كما أجد الفم ينبىء عن الحزم والصدق والرقة فى آن واحد .. إنه وجه شاعر ورجل يعرف معنى الحزن وهموم

(٨) اللازوردية : نسبة إلى اللون اللازوردى وهو لون زرقة السماء .

الحياة، ومن الطبيعى أن أتعاطف معه تعاطفا ً كبيرا ً نظراً لكونه مكفوفاً مثلى .

وحين أسبح مع الخيال أصير قادرة على سماع هوميروس يشدو وهو ينتقل من معسكر لآخر بخطى متعثرة[٩] .. إنه يشدو للحياة والحرب ، ويشدو بمآثر الأبطال العظام ، ولقد كانت الإلياذة والأوديسة حقا ً ملحمتين رائعتين أثارتا إعجاب الناس فى جميع العصور .

وإنى أتساءل فى بعض الأحيان : « أليس بوسع اليد أن تستشعر الجمال أفضل مما تستطيع العين ؟ » .. فأنا أعتقد أن انسياب الخطوط والانحناءات يمكن أن تستشعره اليد أفضل مما تستطيع العين أن تراه . وسواء كان هذا صحيحا ً أم غير صحيح ، فإننى أستشعر قربى الشديد من الإغريق.

ومن وسائل المتعة الأخرى التى لاتتحقق إلا نادراً الذهاب إلى حيث الأعمال الفنية ؛ فأنا أستمتع بحضورها إذا ماصحبنى شخص آخر ليصفها لى أثناء تأديتها، وهذا عندى أفضل من قراءتها لأن حضورى يجعلنى أشعر بوجودى وسط أحداث مثيرة . وقد التقيت ببعض كبار الفنانين الذين كانوا قادرين على جعل الجمهور مستمتعاً، وجعله يعيش فى الماضى الجميل لبعض

(٩) كان هوميروس يتجول فى أنحاء اليونان منشداً أشعاره ومتكسباً منها.

الوقت. وقد أتيح لى أن أتحسس وجه وملابس الفنانة الشهيرة الآنسة « إلين تيرى » عقب أدائها لدور ملكة مثالية ، وكان يقف إلى جانبها الفنان الكبير السير « هنرى إيرفنج» الذى لعب دور الملك.. ولن أنسى ما حييت كم كان هذان الفنانان يبدوان كملكين حقاً!

وعرفت أيضاً الفنان الأمريكى الشهير « جوزيف جيفر سون » ، وأنا فخورة بأن أعتبره أحد أصدقائى ، وعادة أذهب لرؤيته كلما كنت موجودة فى الموقع الذى يؤدى فيه أدواره . وقد رأيته لأول مرة حينما كنت أدرس بمدرسة فى نيويورك ، وكان يلعب دور «رب فان ونكل »[١٠] . وقد قرأت القصة لعدد كبير من المرات لكننى لم أستشعر أبداً سحر شخصية « ربِ» كما استشعرته حين شاهدت هذا العمل الرائع . إذ لعب المستر جيفرسون دور رب بأداء جميل حزين ، ولدى صورة لرب رأيتها بأصابعى ولن تنساها ذاكرتى اللمسية ؛ فبعد مشاهدتنا لهذه القصة صحبتنى الآنسة سوليفان لمقابلة المستر جيفرسون ، ومضيت أتحسس ملابسه الغريبة وشعره المسترسل ولحيته الطليقة . وارتاح لى المستر جيفرسون أن ألمس وجهه ليكون بمقدورى أن أتخيل كيف كان يبدو حين

(١٠) ربّ فان ونكل Rip van winkle : بطل قصة ألفها واشنطن إيرفنج ، وفيها ينام لمدة عشرين عاماً ثم يصحو فجأة ليجد الدنيا قد تغيرت كثيراً من حوله

استيقظ من نومه الطويل الغريب[١١]، وحرص على أن يوضح لى عملياً كيف كان يقف العجوز المسكين «رب».

وقد رأيت جوزيف جيفرسون أيضاً فى قصة « المتنافسون » ذات مرة حينما كنت أزوره فى بوسطن ، وقام هو وابنه بأداء أكثر المواقف إثارة فى تلك القصة خصيصاً من أجلى ، ورحت أتتبع كل الحركات بيدى .. ففى أول الأمر كانا يجلسان إلى منضدة كبيرة ، وفى نهاية المطاف راحا يتقاتلان بالسيوف . ولو كانت هذه القصة قد وصفت لى عن طريق الهجاء على اليد لما كنت أدركت على هذا النحو الجيد كم كانت مرحة وفكاهية وإلى أى حد تكون المبارزة بالسيوف مثيرة ومشوقة ! ومرة أخرى قام المستر جيفرسون فى عصر ذلك اليوم بأداء بعض الأجزاء من قصة «رب فان ونكل » من أجلى ، وقد طلب منى أن أوضح له بقدر ماأستطيع الحركة المناسبة لكل سطر من الحوار . وبالطبع وبقدر مايسعنى التصور كانت كل حركة تبدو لى أنسب ماتكون لسطر الحوار الذى تمثله .. إذكان كل مايفعله جوزيف جيفرسون يبدو مطابقاً لما يحدث فى الحياة ذاتها ، أو على الأقل لما يحدث فى الأحوال المثالية .. أى حين يحدث كل شىء على النحو الذى ينبغى أن يحدث به .

(١١) فى تلك القصة ينام«ربْ فان ونكلْ» نوما متصلا لمدة عشرين عاما ، ثم يصحو فجأة ليجد العالم قد تغير من حوله .

ومازلت أذكر جيداً المرة الأولى التى ذهبت فيها إلى دار العرض ، لقد كان ذلك منذ اثنى عشر عاماً ؛ إذ كانت الفنانة الصغيرة «إلزى لزلى» فى بوسطن ، وصحبتنى الآنسة سوليفان لأشاهدها فى قصة « الأمير والفقير» .

ولن أنسى ماحييت التغيرات الحادة من البهجة والفرح إلى الأسى والحزن ثم إلى البهجة والفرح مرة أخرى التى خيمت على أجواء تلك القصة القصيرة الجميلة . كما سأظل أذكر دائما تلك الطفلة الرائعة التى لعبت دوراً فيها . وقد أتيح لى عقب هذا العرض أن أقابلها وهى لاتزال ترتدى الملابس الملكية . ولاشك أنه يندر للغاية أن نجد طفلاً آخر أكثر وداً ووداعة وكسباً للقلوب من الطفلة إلزى وهى تقف هناك ، وتبتسم فى عذوبة دون أن تلوح عليها أمارات الضجر من جراء وقوفها لأداء الدور أمام هذا الحشد الهائل من الجمهور . كنت فى ذلك الوقت قد بدأت لتوى فى تعلم الكلام ،وقبل أن ألتقى بها رحت أنطق اسمها وأكرره ليتسنى لى أن أنطقه أمامها صحيحاً .. وغمرتنى السعادة حينما عرفت أنها فهمت الكلمات القليلة التى تحدثت بها إليها ، وحينما مدت يدها لتصافحنى .

كما ترى أيها القارىء العزيز فإن حياتى فى ذلك الوقت برغم كل مايعتريها من معوقات كان لديها بعض الصلات بالعالم

الجميل ، وكان لكل شىء حسنه ورونقه حتى الظلام والصمت!.. وقد تعلمت أن أكون قانعة بما أنا فيه ، وإن كنت فى بعض الأحيان ينتابنى الشعور بأنى أعيش وحيدة منفردة .. تماماً كما لو كنت أجلس إلى نفسى خارج بوابة مغلقة ، بينما الدار ذاتها من الداخل حافلة بألوان البهجة من أضواء وصحبة جميلة هائلة .. دون أن يكون بوسعى اجتياز تلك البوابة التى شاء الله أن يبقينى خارجها ! وأحياناً تخيم علىّ لحظات مظلمة أتساءل فيها عن نصيبى ودورى فى الحياة وتتلاعب برأسى أفكار مريرة ، لكن الأمل مايلبث أن يملأ جوانحى وتعاودنى البهجة حين أنسى واقعى المؤلم .. إننى أحاول دائما أن أجعل الضوء فى عيون الآخرين شمسا دافئة وقمرا منيرا .

****

الفصل الثالث عشر

أود لو استطعت أن أضَمِّنْ هذا الكتاب أسماء كل الناس الذين أضفوا على حياتى لمسات السعادة ؛ وبعض هؤلاء من المشاهير الذين يتمتعون بحب الجماهير والبعض الآخر غير معروفين على الإطلاق بالنسبة لأغلب القراء ، لكن هذا ليس سبباً كافياً لكى يغفلهم ، الناس الذين أثْروا حياتهم وزرعوا فيها البسمة والأمل .. إنها تجربة رائعة أن نلتقى بأناس بهذا القدر من الطيبة ودفء المشاعر إلى الحد الذى يجعلنا نشعر بالسكينة والسعادة حين نكون بصحبتهم ، فهم يفتحون أمامنا آفاقاً جديدة فى الحياة ويكشفون لنا عن جوانب خير جديدة فى الدنيا !

وهناك سؤال ..كثيراً ماكان البعض يلقونه علىّ ، وهو كالتالى : « آلايزعجك الناس ؟ » ، ولست أفهم تماماً ماذا يعنى هذا ، لكننى بالطبع لا أحب زيارات الحمقى أو الفضوليين ، ولا ألقى بالاً باهتمامات محررى الصحف . وأكره أن يحاول الناس الحديث إلىّ بطريقة مبسطة بصورة مصطنعة وساذجة من أجل أن أفهم .. إنهم يبدون كأولئك الذين يحاولون تقصير خطاهم لتتناسب مع خطاك وهم سائرون معك ؛ ففى كلتا الحالتين يحاول هؤلاء أن يكونوا شيئا غير ماهم عليه .. الأمر الذى يجعلك تشعر بالألم

والضيق !

وأيدى الناس الذين ألتقى بهم تنم لى عادة بقدر وافر من المعلومات عنهم فأحياناً ألتقى بأناس يعانون من برودة المشاعر إلى حد أن مصافحة أيديهم تكون أشبه بمصافحة إحدى عواصف الشتاء ! .. وأحياناً ألتقى بآخرين يمتلئون بدفء المشاعر إلى حد أشعر معهم بالدفء يسرى فى قلبى ! وقد يقتصر الأمر أحيانا على مجرد لمسة من يد طفل ، لكنها تشعرنى بقدر كبير من السرور كأنها النظرة الحانية حين يستشعرها شخص مبصر .

ومن الأمور التى تمنحنى قدراً كبيراً من السعادة أيضاً مراسلة الأصدقاء ،وقد ارتبطت بعدد كبير من الأصدقاء فى أنحاء العالم وإن كنت لم ألتقى بهم أو أراهم فقط . وهؤلاء الأصدقاء فى واقع الأمر من الكثرة إلى حد لا أكون معه قادرة دائماً على الرد على كل رسائلهم ، لكننى أود أن أسجل هنا شكرى وامتنانى العظيمين لكونى أتلقى منهم كل تلك الكلمات الرقيقة التى لها أطيب الأثر فى نفسى حتى لو لم أكن قادرة على الرد عليهم .

وقد أتيحت لى فرصة التعرف بالكثيرين من العظماء ، ومن هؤلاء الدكتور « أوليفر وِنْدِل هولمز»[١] .. ومازلت أذكر جيداً المرة

---

(١) أوليفر وندل هولمز Oliver Wendell Holmes (١٨٠٩-١٨٩٤) : طبيب وأستاذ جامعى وشاعر ومؤلف وكاتب صحفى أمريكى شهير.

الأولى التى التقيت فيها بهذا الشاعر والكاتب والمحرر الصحفى الكبير ؛ وكان قد دعانى أنا والآنسة سوليفان لزيارته فى عصر يوم أحد ، وكان ذلك فى أوائل الربيع وعقب تعلمى الكلام مباشرة . وقد ذهبنا على الفور إلى مكتبه حيث وجدناه جالساً فى مقعد كبير إلى جانب مدفأة كانت تنشر الدفء فى أنحاء الغرفة ، وأظرف مافى هذا اللقاء أنه أبلغنا أنه كان مستغرقاً فى التفكير فى الأيام السعيدة التى صادفته فى حياته..

وكانت الغرفة تفوح منها رائحة أحبار الطباعة وجلد أغلفة الكتب ، الأمر الذى أدركت منه أن المكان مليء بالكتب .وقد مددت يدى لأتحسس بعض تلك الكتب ، فلمست أصابعى مجلداً جميلاً كان عبارة عن ديوان لأشعار « تينيسون » وحين أبلغتنى الآنسة سوليفان بمحتوى الكتاب ، بدأت أردد بعض أبيات إحدى قصائد تينيسون التى كنت أحفظها عن ظهر قلب ، لكنى لم ألبث أن توقفت فجأة حينما شعرت بقطرات من الدمع تتساقط على يدى .. لقد جعلت الدكتور هولمز يبكى ، الأمر الذى كان مبعثاً لأسفى ! وقد أجلسنى الدكتور هولمز فى مقعده ، ومضى يحضر لى بعض الأشياء المثيرة للاهتمام لكى أفحصها . وتلوت له بناء على طلبه قصيدة « قوقع النوتى عديد الحجرات »[٢] ،

(٢) قوقع النوتى عديد الحجرات The Chambered Nautilus : قصيدة شهيرة نظمها «أوليفر وندل هولمز» عن قوقع من نوع النوتى اعتاد أن يضيف حجرات جديدة إلى قوقعته كلما نما وتزايد حجمه.

وكانت قصيدتى المفضلة فى ذلك الوقت . وبعد أن التقيت بالدكتور هولمز مرات كثيرة ، أحببته كإنسان بقدر ماأحببته كشاعر.

وفى أحد أيام الصيف الجميلة وبعد فترة قصيرة من لقائى مع الدكتور هولمز ، قمت أنا والآنسة سوليفان بزيارة الشاعر والصحفى والمصلح الاجتماعى « جون جرينليف ويتيار» فى منزله الهادىء الواقع على نهر « ميريماك » ، وقد أذاب فؤادى بلطفه وأدبه الجم. وكان لديه أحد دواوين شعره مطبوعاً بحروف بارزة ، فرحت أقرأ له قصيدة « فى أيام المدرسة » ، وسره تمكنى من نطق الكلمات بطريقة صحيحة ، وذكر لى أنه لم يعان أية صعوبة فى فهم كلماتى . ثم انطلقت أسأله عدداً وافراً من الأسئلة عن قصيدته ، ورحت أقرأ إجاباته ، وكان من بين ما قاله أنه هو نفسه الصبى الصغير الذى تتحدث عنه القصيدة ، وأن اسم الفتاة التى تتحدث عنها القصيدة هو «سالى» ، وذكر لى أيضاً الكثير من الأمور التى لم أعد أذكرها . وتلوت له قصيدة أخرى ثم ذهبنا بعد ذلك إلى مكتبته ، وقد رقع ويتيار باسمه فى أتوجراف الآنسة سوليفان وأبلغها بإعجابه بجهودها فى تعليمى ، وقال لى أيضاً : «لقد حررت روحك من عقالها» . وبعد ذلك قادنا للبوابة وودعنى ، وقد وعدت بزيارته مرة أخرى فى الصيف التالى .. لكنه وللأسف الشديد وافته المنية قبل حلول ذلك الموعد!

وكان من أصدقائى القدامى أيضاً الدكتور « إيفريت هيل » ، الذى عرفته منذ أن كنت فى الثامنة من عمرى ، والذى كان حبى له يتزايد كلما تقدم بى العمر وقد أعاننى وأعان الآنسة سوليفان على اجتياز الكثير من الصعوبات بحكمته ورقته ومشاعره النبيلة .كما عاون أيضاً الآلاف من الناس الذين واجهتهم الصعوبات فى حياتهم ،بنفس الطريقة التى عاوننا بها . وقد دأب على تعليم الناس معنى الحب والوفاء ، ومعنى الحياة ، وكيف يعيشون أحراراً . وقد شهدنا كيف كان يعبر عملياً عن أفكاره فى حياته الخاصة والعامة أفضل تعبير .. كيف كان حبه لبلاده ، وكيف كان عطفه وشفقته نحو كل إنسان بما فى ذلك أتفه الناس شأناً ، وكيف كان إصراره على أن يجعل الحياة من حوله أفضل مما هى عليه .

كتبت لكم فى الفصل الأول عن لقائى الأول بالدكتور «الكسندر جراهام بل» ، وقد قضيت معه منذ ذلك اللقاء الأول الكثير من الأيام السعيدة فى واشنطن ، وكذلك فى بيته بجزيرة «كيب بريتون» .ففى ذلك البيت وفى ورشته الخاصة قضيت الكثير من الأوقات السعيدة أنصت إلى ماكان يحكيه لى عن تجاربه . وفى الحقول القريبة من الشاطىء رحت أعاونه فى إطلاق طائرته الورقية ؛ التى كان قد أعدها من أجل الاستعانة بها فى

اكتشاف قوانين الطبيعة اللازمة لتطوير المناطيد[٣] . لقد كان الدكتور بل عالماً ملماً بالكثير من المعلومات فى ميادين العلم[٤] ، وكانت لديه القدرة على إضفاء الإثارة على كل الموضوعات حتى أعقد النظريات العلمية .. إنه يجعلك تشعر أنه لو كان لديك المزيد من الوقت فسوف يكون بإمكانك – أنت أيضاً – أن تصبح مخترعاً .وكان الدكتور بل يبدو فى بعض الأحيان مرحاً ، وفى أحيان أخرى حالماً كالشعراء وهو رجل يحب الأطفال حباً جماً وكان يشعر بسعادة لاتوصف حينما يرى طفلاً أصماً بين ذراعيه، وسوف تظل إنجازاته من أجل الصم باقية لتعين أطفالاً لم يولدوا بعد .ونحن نحبه من أجل إنجازاته الخاصة العظيمة ، ونحبه كذلك من أجل تأثيره على الآخرين وتشجيعه لهم على الإنجاز !

أتيحت لى أثناء العامين اللذين قضيتهما فى نيويورك الكثير من الفرص للتحدث مع بعض الشخصيات اللامعة التى سمعت بأسمائها من قبل دون أن أتوقع مقابلتها .وأغلب هؤلاء كان

---

(٣) قبل عصر الطيران الذى نعيشه الآن (والذى بدأ عام١٩٠٣ بنجاح الأخوين رايت فى الطيران بطائرتهما) استخدمت الطائرات الورقية فى إجراء الكثير من التجارب والاختبارات العلمية على الجو.

(٤) أشرنا إلى الدكتور «الكسندر جرهام بل» فى هامش سابق ، ونضيف أنه جمع بين كونه عالماً و باحثاً وأستاذاً لفسيولوچيا الصوتيات vocal physiology وبين كونه مخترعا لعدد كبير من المخترعات من بينها العديد من الوسائل المستخدمة فى تعليم الصم .

لقائى الأول بهم فى منزل صديقى الفاضل المستر «لورانس هاتون» الناقد والمحرر الأدبى لمجلة هاربر ، وكان من دواعى سرورى أن أزوره هو وزوجته العزيزة المسز هوتون فى منزلهم الرائع ، وأن أرى مكتبتهم الحسنة التنسيق ، وأن أقرأ الكلمات المعبرة التى خطها لهم أصدقاؤهم وما تفيض به من مشاعر طيبة .وكان الناس يقولون دوماً عن المستر هاتون أن لديه موهبة استخلاص أفضل الأفكار وأطيب المشاعر من كل شخص يلتقى به .

والمسز هاتون صديقة مخلصة ، وأنا مدينة لها بالكثير مما أعتبره عزيزاً على نفسى وأثيراً إلى قلبى ؛ فقد ساعدتنى كثيراً فى تحقيق تقدمى فى دراستى الجامعية وكانت تسدى إلىّ النصح والمشورة . وحين كانت الصعوبات تتكالب علىّ ويدب اليأس إلى نفسى ، كانت تكتب لى رسائل تقوى من عزيمتى وترد إلىّ شجاعتى .. وقد تعلمت منها أن المرء حين يتمكن من إنجاز عمل يتسم بالصعوبة والمشقة ، يهون عليه بعد ذلك مايعقبه من أعمال ويشعر بها أكثر يسراً وسهولة .

وقد قدمنى المستر هاتون إلى الكثيرين من أصدقائه فى الحقل الأدبى ، ولعل أعظم هؤلاء جميعاً المستر « وليم دين هاويلز » الكاتب الروائى والمحرر الصحفى والناقد البارز ، وكذلك « مارك

توين » الكاتب الشهير . وممن عرفنى بهم المستر هاتون أيضاً المستر « تشارلز ددلى وارنر » وهو قصاص بارع وصديق ودود كان قوى العاطفة إلى حد قيل عنه بصدق أنه عاشق لكل الكائنات الحية . وقد صحبنى المستر وارنر ذات مرة لرؤية شاعر الغابات العزيز المستر « جون بورروز » . وكان هؤلاء جميعاً فى غاية اللطف والود وقد أعجبت بسلوكهم وأسلوبهم فى الحديث تماماً كما أعجبت من قبل بذكائهم وروعة أسلوبهم فى الكتابة . ولم يكن باستطاعتى مجاراة عمالقة الأدب هؤلاء حينما كانوا ينتقلون بالحديث فى سلاسة من موضوع لآخر ، أوحينما كانوا يتبادلون المناقشات العميقة أو يتفكهون فى الحديث بألمعية . إذكنت بينهم أشبه بصبى صغير يحاول جاهداً مجاراة خطى والده الواسعة ، لكنهم كانوا يتوجهون إلىّ أيضاً بكلمات تفيض بالعطف والود ، وحدثنى المستر جلدر ذات مرة عن رحلاته فى ضوء القمر عبر الصحراء الكبرى إلى الأهرامات ، وفى رسالة كتبها لى وقع باسمه مضغوطاً على الورق فى وضع عميق ليتسنى لى أن أتحسسه .وهذا يذكرنى بما كان يفعله الدكتور هيل الذى اعتاد على إضفاء لمسة خاصة على رسائله إلىّ عن طريق توقيع اسمه بالحروف البارزة . وقد قرأت من على شفتى مارك توين واحدة أو اثنتين من أفضل قصصه وكانت لديه طريقته الخاصة فى التفكير والحديث وفى

كل مايفعل ، وهو حتى حين يروى قصصه الساحرة يجعلك تشعر أن قلبه ملئ بالمشاعر الإنسانية !

وقد التقيت بالكثيرين غيرهم من المشاهير والشخصيات العامة فى نيويورك، ومنهم مثلاً المسز مارى ميبس دودج رئيسة تحرير مجلة «سانت نيكولاس» ، وكيت دوجلاس ويجين مؤلفة «بيستى Pasty» . وقد أهديانى كتبهما وكتبا لى رسائل رقيقة ، كما أرسلا إلىّ صوراً أحب دائماً أن توصَفْ لى مراراً وتكراراً . ولما كان حيز هذا الكتاب يضيق ذكر كل أصدقائى فسوف أكتفى بالحديث عن اثنين آخرين فقط ، وإحداهما هى المسز وليم ثو من بتسبرج ؛ التى كثيراً ماترددت على منزلها لزيارتها ، وهى دائماً لا تدخر وسعاً من أجل إسعاد الآخرين ، وقد شملتنى أنا ومعلمتى الآنسة سوليفان بلفتاتها الكريمة ونصحها الحكيم طوال السنوات التى كنا على صلة بها فيها .

أما الصديق الأخر فليس باستطاعتى أن أذكره بالاسم وإن كنت أؤكد إننى مدينة له ديناً عظيماً ، فقلبه العطوف واهتمامه وحبه قد يسر لى الالتحاق بالجامعة .. وهو رجل شهير واسع النفوذ ، وقدراته الخلاقة تدفع كل شخص إلى احترامه .. وهو شغوف بكل إنسان ، ويفعل الكثير من الخير سراً بصورة لايدرى بها أحد ..

كان لأصدقائى أثر عظيم على قصة حياتى ؛ إذ ساهموا بشتى الوسائل فى إحالة عجزى ومعوقاتى إلى مزايا باهرة ، وأعانونى على اجتياز منطقة الظلال التى خيمت على حياتى من جراء فقدى سمعى وبصرى ونشروا الأمان والبهجة فى ربوع حياتى .

هيلين كيلر

١٩٠٢



● هيلين كيلر واحدة من أبرز الشخصيات التى وُلِدَتْ فى القرن التاسع عشر، فالتاريخ سيظل يذكرها باعتبارها الفتاة التى تمكنت من قهر الإعاقة المزدوجة التى أصيبت بها بفقد بصرها وسمعها، ومن المشاركة الفعالة فى الحياة العامة والأنشطة الاجتماعية وهيلين بالطبع لم يكن بوسعها تحقيق تلك الإنجازات بمفردها، فهى فى الواقع قد ظفرت بعون معلمة قديرة لاتقل عنها براعة وألمعية هى الآنسة «آن سوليفان»، تلك الشابة التى أخذت على عاتقها أن تقود «هيلين كيلر» فى رحلة الخروج من الظلام الذى كان يخيم على حياتها، وأن تعاونها على الحياة بصورة طبيعية كسائر البشر.

منتديات ليلاس الثقافية